لنا عبد الرحمن

قيد الدرس

رواية

الكتاب: قيد الدرس (رواية)

الكاتب: لنا عبد الرحمن

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

عبد الرحمن ، لنا

قيد الدرس (رواية) / لنا عبد الرحمن

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٥٥ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٢ – ٦٥ – ٦٨٣٧ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٥٠٤٦ / ٢٠٢٠

قيد الدرس

(رواية)





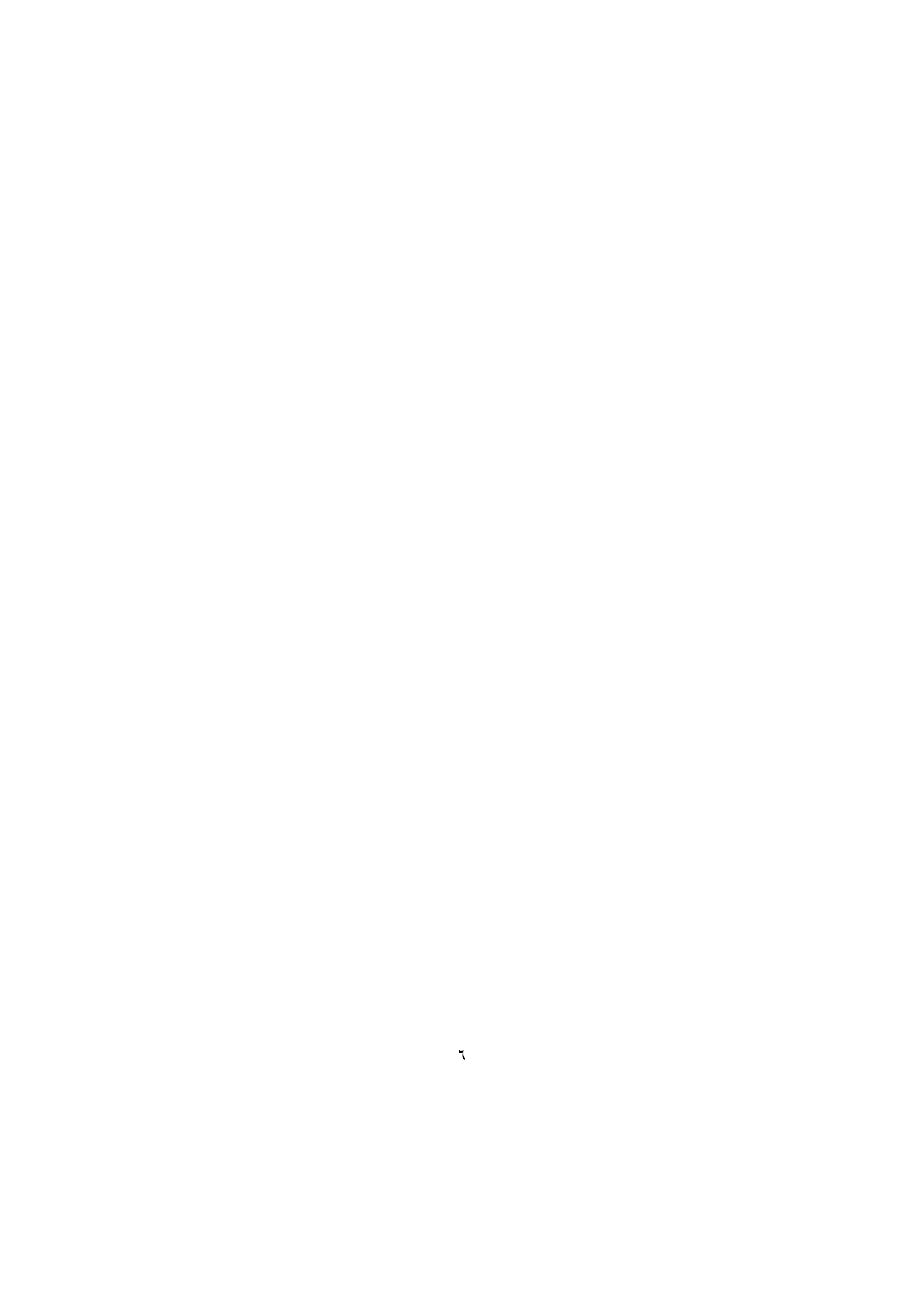
إهداء

إلى الذين واجهوا أشباحهم بثبات

إلى الخاسرين كثيرا، الحالمين دوما

إلى الذين ربطوا أجسادهم إلى سارية السفينة،

أو صموا آذانهم عن الغناء الفتان.



الفصل الأول

بيروت – ٢٠١٢



حسان عبدالله

من جديد، ها أنتَ تقف على حافة تحولٍ آخر من تحولات حياتك الكثيرة، لكن هذا التحول يشبه انعطافا قسريا، عليك أن تحافظ فيه على كامل توازنك.

ليتك تبقى كما أنت الآن.. عالقا بين السماء والأرض. حالة من التحرر، تسكنك منذ بداية أي رحلة سفر. تحب المطارات، حركة الناس فيها، وجوه الغرباء الغامضة، تعجلهم، حيرتهم، تلهفهم للوصول، حالات تلهمك أُمنية استمرار السفر، والوصول إلى اللامكان. تكتشف في كل مرة أن الرحيل الدائم، وقت مقتطع غير متصل بالزمن، تكون خلاله في حالة أمان قصوى، غير مرهونة للمكان، للهويات، وللتعريفات التي يبحث عنها الآخرون.

مقعد الطائرة يساعدك على البقاء سارحا في أفكارك. تُراجع ذاكرتك كلها في رحلة العودة، تبحث عن أول الحكاية، رغم أنها ليست حكايتك وحدك. عالمك الفوضوي هو حكايتك، وأنت تبحث عن الكلمات، وحكايتك تشبه طبقات الموسيقى المتكسرة عند فاغنر، والعيون الحزينة في لوحات موديلياني، وقصة دراكولا المختبئ تحت الأنقاض في

"دير السرو". حكايتك لا يمكن كتابتها إلا من رقعة الظلام التي تعرفها جيدا.

سيقولون إنك تعبث بالحقيقة، وسوف تقول لهم بنزق: "إنها حكايتي".

لماذا لا تكتفي بالوجوه المتعبة، التي ترسمها.. بخطوطك وألوانك، وعبثك على الورق. لِمَ تريد مواجهات جديدة مع كل ما كان؟!

المهمة التي جئت من أجلها إلى بيروت محددة، ومن الممكن إنجازها في أسبوع أو اثنين، حينها ينبغي عليك العودة إلى لندن ومعك سامي، الذي سيشاركك ساعات السفر، وهذا ما لم يحدث من قبل، وكما لو أنك أمام شريط سينمائي يعرض أمامك ما ينبغي فعله. تباغتك صورة أختك ليلى كلما تسلل إليك ارتباك التساؤل عن الغد.

اختارتك أنت لترعى ابنها، وهي تعرف أنك غير مؤهل لتدبر شؤونه، ومعرفة احتياجاته! كيف يمكنك أن تتعلم التعامل مع صبي على أعتاب المراهقة لم تجمعك به إلا لقاءات محدودة؟ تحاول تذكر عوالمك حين كنت في مثل سنه، تريد العثور على بوابة صغيرة تدلف منها إليه.

ليلى عبدالله

يبدو أني وضعت الملح مرتين في الطعام (غلطة الشاطر بألف) سترميني أمي بأحد الأمثلة لو اكتشفت أن الملح زائد.

حسان سيصل من السفر بعد قليل من الوقت، وينبغي الانتهاء بسرعة.

جسدي متعب، أنام لساعات طويلة، قدماي ثقيلتان كأني أجر خلفي أكياسا من الرمل، أستيقظ مقيدة بإحساس من ظل لساعات يحصد منفردا حقلا من القمح. ينبغي عليّ ممارسة الحياة حتى آخر رمق، لن أستسلم، أريد العيش من أجل أشياء كثيرة حلوة لم أعرف قيمتها إلا في وقت متأخر.

نظرتُ إلى مرآة المطبخ المثبتة في الزاوية، كيف نجت هذه المرآة من كل الحروب، وظلت مكانها؟! مرآة إطارها نحاسي على شكل شمس طالها عطب السنين، لكنها لم تنكسر. لماذا وضعتها جدتي سعاد هنا؟ كم من الوجوه نظرت في هذه المرآة قبلي! وهل خمنت جدتي أني سأنظر إليها يوما كي أراقب خطوط التجاعيد الرقيقة التي بدأت تتشكل حول عيني، لكن هذه الخطوط لا تفزعني. إنها السابعة والثلاثين فقط، وفي النهاية تبدو الأشياء متساوية؛ لأن هناك حجرا كبيرا يُلقى علينا من خلف ظهورنا من دون أن نعي. شعرات بيضاء متوارية في مقدمة رأسي، أما وجهي، فلا أراه، أحس أنني أرى وجه أمي.

انعكاس وجهي في المرآة يكشف كم صرت أشبهها! متى اقتربت ملامحي من ملامحها !

صار لي نظرة العين الساهمة نفسها، وجنتان غائرتان، هالات زرقاء حول عيني. لِمَ لم أرث جمالها وشعرها الأحمر المموج الطويل! لكن نجوى أورثتني لعنتها، وقلة حظها، وخيبتها في تقدير الأمور. كلما نظرتُ إلى المرآة أرى ملامحها تزاحم صورتي، وأكاد لا أسامحها، ولا أسامح نفسي على ما أفكر به؛ لأني لم أتمكن أبدا من فهم أسباب التباس علاقتي بها إلى هذا الحد.

تذوقت محشي ورق العنب، بدت نكهته مقبولة لولا قليل من الملح الزائد. اعتدت القيام بتصرفات خاطئة. هذا ليس جديدا علي. المضي في الطرق المعاكسة لأهدافي صار أمرا بديهيا، لذا لم يبق لدي شيء من

الأحلام. تلاشت كلها، منذ أن تبددت الغايات الأولى والحقيقية. الآن لم يعد من المجدي التفكير سوى بالواقع، بالحال الذي أنا فيه. ليس علي استدعاء الماضي، البحث في الجذور كي أعرف متى بدأ زمن الخسارة.

هل بعد توقفي عن الدراسة؟ أم منذ فراقي عن ربيع! أم..وأم.. وأم؟

انكسارات، لا أعرف أيها كان أقسى من الآخر، أم أن هناك توازيا أدى إلى ذات المحور!

لا.. لا، زمن الانكسار أبعد من هذا بكثير، إنه منذ إدراكي بأني شبه يتيمة في هذا العالم؛ الإحساس باليتم ليس له علاقة بالوجود البدني للأبوين، فما فائدة الوجود المادي مع غياب الغاية الحقيقية منه.

أعبر ممرا طويلا، معتما قليلا، مفتوحا على الصالون، تعلق عيناي عند الركن البعيد منه، في الجانب الذي سميته "ركن الموسيقى"، حيث يوجد البيانو، والعود القديم الذي استعان به جدي مرارا لإيقاع النساء في حبه؛ عود أثري فخم نجا من الحرب أيضا، ظلت أوتاره صامدة تواجه الدمار وانهيار الأبواب والشبابيك وسقوط الجدران، صور بالأبيض والأسود،بساط شرقي، ومسبحة من حجر الكهرمان كانت لجدتي.

أجلس على الصوفا الصغيرة في سكون وعتمة، يخيل لي أن الأشباح غافية في الزوايا. البيت هادئ؛ سكانه ما زالوا نياما، أفتح باب غرفة سامي، غافيا كملاك ذهبي بشعره الطويل الأشقر، أسترق النظر إلى وجهه البريء، لا يبدو لي أنه أنهى سنواته الثلاثة عشر، أسئلته عن الحياة تحزنني لأنه مثلي بحث عن أب ولم يجده. وسيظل طوال حياته يتوق لمن يمنحه تلك

العاطفة المنقوصة.

الحياة ليست عادلة..

ليست عادلة على الإطلاق.

الفصل الثاني

بيروت – دير السرو ١٩٨٢

قابعا في حضن جدته "سعاد" في سيارة مرسيدس بيضاء متهالكة، سمع حسان تمتمة "نجمة"، فيما عيناها مصوبتان نحو الرجال الملثمين "جواسيس ولاد كلب".

جدته تضمه إلى صدرها وتردد دعاءها الدائم: "يا خفيَّ الألطاف نَجِّنا مما نخاف"، فيما أمه نجوى تواصل التربيت على ظهر ياسمين كي تغفو قليلا بعد نوبة متواصلة من البكاء.

يذكر حسان أنه خاف من الرجل الملثم الذي نظر إليهم، خاف أن يشير إلى أحد منهم، ثم يدفعه خارج السيارة ويأخذه بعيدا. الرجل الذي يرتدي زيا عسكريا مموها طلب بطاقاتهم الشخصية، وهو يمد رأسه من زجاج السيارة المفتوح، ينظر إليهم مثل صقر يوشك أن ينقض على فريسته، جدته سعاد وقريبتها نجمة أخرجتا هويتهما اللبنانية، فيما أمه نجوى مدت بطاقة "قيد الدرس". أشار لهم العسكري بالمرور، وما إن عبروا

حتى صدرت عن نجوى شهقة رعب، ظن معها كل من في السيارة أن أعراض الولادة بدأت الآن، لكنها هزت رأسها، وهي تلتفت للخلف تحدق في عيني أمها، وتذكر اسم شخص ما، رأته يقف وسط الرجال الذين يرتدون ثيابا عسكرية، ومعهم جواسيس ملثمون، وأن ذاك الرجل الكتائبي لو التفت نحوهم كان سيعرفها، ويكشف حقيقة زواجها من فدائي، وسيكون مصيرهم جميعا مثل مصير ركاب السيارة السابقة التي اقتيد أفرادها بما فيهم الأطفال زحفا مع ضربات البندقية على ظهورهم، ربما يُعذبون ببطء أو يُذبحون وتلقى جثثهم في الوادي ولن يعرف بمصيرهم أحد.

في البداية هربوا من منطقة "وادي أبو جميل" الواقعة في قلب بيروت إلى بلدة "شتورة" التي تُعتبر المحطة الرئيسية في سهل البقاع. انحشروا جميعا في سيارة مرسيدس يقودها سائق ضخم من معارفهم، كانوا سبعة أشخاص: نجوى وأولادها: حسان، وليلى التي تصغره بعامين، وياسمين، التي لم تتم عامها الثاني. سعاد والدة نجوى، ونجمة قريبتها مع ابنتها جمانة، التي كانت في مثل عمر ليلى.

جلست نجوى – التي تضاعف حجمها خلال الحمل – والصغيرة ياسمين في المقعد الأمامي إلى جوار السائق، فيما جلسوا جميعا في المقعد الخلفي.

لم تكن المسافة بين المكانين تتجاوز خمسين كيلو مترا، لكن الفرار من نيران الاجتياح الإسرائيلي، جعل رحلتهم ما بين موت وحياة، رعب، زحام، تدافع، ضجيج مخيف. رجال مسلحون، ووجوه ملثمة عند الحواجز

العسكرية تحدق بركاب كل سيارة، ثم تشير إلى المشتبه بهم، حينها يُؤمر السائق بصف السيارة يمينا؛ وبعنف شديد يجرون الرجل أو المرأة، التي أُشير إليه أو إليها، ترتفع الصرخات ثم تتلاشى أمام التهديدات والشتائم والوعيد.

من يومها كره حسان العسكر، والحروب، والعنف، والهويات، التيُ تعرض أصحابها للذبح. طوال عمره سيظل يفكر كيف من الممكن لأي كان أن يقتل شخصا مجهولا فقط لأنه يحمل هوية تختلف عن هويته؟ لكن مع الوقت سيجد أن سؤاله هذا ساذج للغاية، لأن الحروب بكل ما فيها من بشاعات تقوم بناء على رغبة طرف في إبادة هوية طرف آخر.

بعد أن اشتد القصف أخذت نجوى أولادها الثلاثة، وانتقلت من بيتها في منطقة "الفاكهاني" التي تكثر فيها مقرات التنظيمات الفلسطينية، إلى بيت أمها سعاد في "وادي أبو جميل" ظناً منها أن وسط بيروت سيكون أكثر أماناً، لكن بعد سقوط قذيفة واشتعال الطوابق العليا من البناية، اضطروا جميعا لمغادرة بيروت. يومها كان حسان في العاشرة من عمره، مازال يذكر أصوات الطائرات المرعبة، والصواريخ المدوية التي تضرب المدينة، وصرخات الناس وتدافعهم، هربهم، ورعبهم مما سيأتي. ظن أن هذا هو يوم القيامة الذي حكى عنه المدرس في حصة الدين. كيف سيكون يوم القيامة إذن، إن لم يكن ما شاهده ذاك النهار هو الجحيم بعينه!

في "شتورة"، سكنوا مع عائلة عامر التي تجمعهم بها قرابة بعيدة؛ وهربوا قبلهم إلى سهل البقاع بعد أن ازداد الحال خطورة في بيروت.

استضافوهم بكرم لأسبوع كامل. كانوا عائلتين، لأخوين متزوجين من أختين أيضا، استأجروا شقة في الطابق الثاني، من بناية تطل واجهتها على الشارع الرئيسي، ومن الخلف على حقل شاسع. كل عائلة تسكن في غرفة، والصالون يجلس فيه الجميع، يأكلون على الأرض، يستخدمون مطبخا واحدا، وحماما مشتركاً، مشغولا أغلب الأوقات. كان معهم أيضا جد عجوز يمضي يومه في الصلاة، أو متنحنحا بجوار جهاز الراديو. رجال العائلات الثلاث يواصلون القتال دفاعا عن بيروت، وفي كل يوم يكون مصيرهم مجهولا.

في الليل يجلس الجميع بجانب الراديو الصغير، تحرك إحدى النساء المؤشر متنقلة بين "إذاعة المرابطون"، و"صوت الشعب" كي يستمعوا لأخبار العاصمة المحاصرة. لم يعرفوا شيئا عن الأزواج المقاتلين إلا من عابري سبيل مروا سريعا لطمأنة الزوجتين أن الأخوين عامر أحياء، ولم ينضما بعد إلى صفوف الشهداء، رغم أن هذا كان متوقعا في كل لحظة. أما نجوى فقد انقطعت عنها أخبار زوجها باسم قبل مغادرتها بيروت بأسبوعين، ففي الساعات الأولى من بداية الاجتياح غادر إلى ثكنته في بيروت أو الجنوب أو الجبل، كان مخلصا لرفاق الجبهة أكثر من أي أمر آخر في حياته.

في ذلك الوقت، كانت سعاد قائدة للعائلة، وابنتها نجوى تابعة لها، من دون أن تشارك- كعادتها- في القرارات الحاسمة؛ لذا بعد مرور أسبوع على إقامتهم عند عائلة عامر، قررت سعاد أن عليهم الانتقال إلى مكان آخر، لأن الحرب طويلة كما يبدو. ستبحث عن بيت للإيجار في "برالياس"

أو "المرج" أو "دير السرو" تلك البلدات شهدت منذ بدء الغزو تهجر العديد من العائلات التي تسكن بيروت.

اقترحت سعاد على قريبتها نجمة أن تذهبا لزيارة رضية، المرأة البدوية، التي تسكن مع زوجها وأولادها في "دير السرو"، ربما تساعدهم في العثور على بيت للإيجار بسعر رخيص. كانت رضية تأتي إلى بيروت كل يوم سبت لتبيع للنساء ما تصنعه من مؤن: جبنة ماعز، لبنة مكبوسة بالزيت، مربى مشمش وتين، مخللات، مكدوس، قشطة، سمنة بلدية، زيتون. ومع مرور الوقت نشأت بين سعاد وبينها صلة أقرب للصداقة، إذ كانت رضية خبيرة في تركيب علاجات بالأعشاب، وفي الحجامة، وصب الرصاصة لدرأ الحسد، وصنع دهانات لآلام الظهر والساقين، ولما نجحت وصفتها في علاج ظهر سعاد، الذي اشتكت طويلا من ألمه، صارت علاقتهما أكثر ألفة ومتانة، فقد اعتادت رضية أن تزور سعاد، وتتناول الغداء برفقتها، بغض النظر عن عمليات الشراء والبيع؛ وكانت سعاد تصف رضية بأنها "حكيمة".

الفارق في العمر بين سعاد وابنتها نجوى كان سبعة عشر عاما بالتمام والكمال، لذا لم تكن سعاد جدة هرمة، بل قائدة سوف يفتقدونها في كثير من المواقف في سنوات لاحقة. لعل أكثر ما أوجع قلب سعاد في أيام الحرب تلك إصرار ابنها وهيب على البقاء في بيروت، وهي تصعد إلى السيارة وتدفعه للقدوم معهم، كان يقول لها، وهو يلثغ:

"الدجاجات.. مين بدو يحط أكل للدجاجات". وكان يقصد محل

الدجاج، الذي يعمل فيه. سعاد وحدها تدرك أن وهيب لم يكن متخلفا عقليا كما يظن الجميع، وتدرك أنها لم تكتشف حالات توحده إلا في وقت متأخر، لم يعد ينفع معه العلاج.

لفت سعاد إيشاربها الأسود حول وجهها الأبيض النحيل، بدا لون الإيشارب منسجما مع لون عينيها. استعجلت نجمة التي تصغرها بعدة أعوام لكنها لا تغادر البيت قبل أن تضع رتوشا من الماكياج على وجهها، مررت نجمة أحمر الشفاه الوردي على شفتيها، وقلم كحل أسود في عينيها، كانت نجمة على النقيض من سعاد، ممتلئة وقصيرة، وجهها مستدير وردي اللون، شعرها أميل للشقرة، عيناها زرقاوتان صغيرتان، على جبينها بعض خطوط التجاعيد الرقيقة لامرأة تجاوزت الأربعين، أنفها قصير، وذقنها مدبب، تعقص شعرها الخشن إلى الخلف على هيئة كعكة. وإذا كانت سعاد حاسمة ودقيقة وجدية، فإن نجمة خفيفة، ميالة للضحك والسخرية، تمضي أوقاتها في مجالسة النساء وقراءة طالعهن في فناجين القهوة، ورغم ما في حياتها من مآس لم تكن تبالي بشيء.

لم ترافقهن نجوى بسبب إرهاق الحمل، ولأن ابنتها ياسمين تعاني من إسهال مزمن جعلها تزداد هزالا، حتى صارت تشبه أطفال المجاعات. ينبغي على نجوى أيضًا فض أي اشتباك وارد حدوثه بين الأطفال، فقد أظهرت ليلى في الثامنة من عمرها ميولا صبيانية عبر تفضيلها اللعب مع الصبيان على مرافقة البنات اللواتي صرن يشتكين منها لأتفه الأسباب، ومن بين كل الأولاد فضلت ليلى اللعب مع ربيع عامر الذي يكبرها بعدة أعوام، كانا ثنائيا لا ينفصل، أينما تكون ليلى سيكون ربيع، يركضان في الحقل

لتسلق شجرة التين، يأكلان معا ساندويتشات جبنة وهما يقضمان خيارتين ويجلسان في البلكونة المطلة على الحقل، حيث لا يمكن لبقية الأولاد اكتشاف مكانهما.

في أحد محلات الذهب في "شتورة"؛ باعت سعاد قطعتين من ذهبها. تخلت عن سوارين ورثتهما عن أمها، ظل في حقيبتها عدة سلاسل ذهبية، وخمس ليرات، وأربعة خواتم، وقرطان للأذن، وملعقة ذهبية صغيرة تعتز بها أكثر من أي قطعة ذهب أخرى، لأن أمها كانت تحكي بفخر أن تاريخ هذه الملعقة يرجع لإحدى جداتها، التي تزوجت من أمير في جبل لبنان، وتم توارثها من جيل إلى جيل.

عند المساء، عادت المرأتان، وملامح الانفراج تعلو وجهيهما، أعلنتا أنهما عثرتا على بيت في "دير السرو"، وأنهما ستذهبان غدا في جولة لشراء الحاجيات الضرورية كي يصبح صالحا للسكن.

* * *

البيت الذي سكنوه، جدرانه شاحبة من دون طلاء، سقفه من صفيح، أما الشبابيك والأبواب فقد تآكل خشبها عند الأطراف، وعلى الرغم من اتساع مساحة البيت إلا أن تقسيم الغرف بدا غريبا بالنسبة للأسرة؛ غرفة الصالون منفردة، تتصل مع البيت عبر ممر صغير، بجواره مصطبة ومساحة ترابية واسعة نمت فيها حشائش طفيلية وبعض الأشواك، مقابل الصالون باب آخر يضم ثلاث غرف، ثم المطبخ والحمام في آخر المنزل، وبجانب المطبخ غرفة صغيرة، تُستخدم عادة للمؤن، لها باب جانبي

يؤدي للخارج، اختارت نجمة أن تقيم مع ابنتها جمانة في هذه الغرفة، لأنها قريبة من الحمام، وفي نفس الوقت تسمح لها بالدخول والخروج من دون العبور بسائر الغرف.

حكت سعاد لابنتها، وهي تشير بيدها نحو فيلا من الحجر الأبيض، إنها استأجرت البيت بمبلغ زهيد، لأن الأرض التي تقع عليها الفيلا وهذا البيت من ضمن أملاك رجل مهاجر منذ أوائل السبعينيات، وأن مختار المنطقة استولى على الأرض بما فيها بساتين التفاح، لكن الفيلا سيطر عليها مسلحو أحد الأحزاب التي جعلت من " دير السرو" أحد مراكزها الأمنية. خاف المختار أن تمتد يد المسلحين إلى بساتين التفاح والبيت المجاور لها، لذا قرر أن يؤجره؛ وبوجود أسرة مهجرة يُحارب معيلها في بيروت أو الجبل، يضمن ألا يقوم المسلحون بالاستيلاء على البيت أيضا، لكن المختار طلب من سعاد نكران أنهم يدفعون له المال، والقول إنهم سكنوا في البيت لأن ليس لديهم مكان آخر يأوون إليه، وهذا ما فعلته سعاد حين جاء في نفس اليوم مساء ضابط شاب يستطلع هويتهم وسبب سكنهم للبيت المهجور.

حين دخلت نجوى البيت، بان عليها الاشمئزاز، كما لو أنها دخلت اسطبلا للخيول، شعرت بالإرهاق لاقتراب موعد ولادتها. جلست على كرسي في الصالون الخالي، بطنها يتمدد للأمام مثل منطاد كبير، أمها ونجمة تواصلان عملهما في وضع الفرشات والحصر على الأرض ونقل بعض الأوعية البلاستيكية إلى المطبخ.

لم تكن سعاد أو نجمة متأثرتان بما يحدث مثل تأثر نجوى، إذ كيف ستعيش في هذا البيت، بعد حياتها في بيت "وادي أبو الجميل" المبني على طراز بيوت بيروت القديمة ذات الغرف الواسعة والأسقف العالية والشبابيك العريضة والشرفات التي تطل منها زهور الزنبق والفل والياسمين، لكن بالنسبة لسعاد، فقد تعلمت تجاوز الصعاب بعد زواجها سرا من عواد الكردي حين كان عمرها خمسة عشر عاما، حيث ظلت لسنوات تدفع ثمن تلك الفعلة الجريئة ، لكنها صمدت، ومع الأيام اشتد عودها أمام نكبات الزمن. أما نجمة، فبعد مشاهدتها موت زوجها، وابنتها أمام عينيها خلال معارك "الدكوانة" و"تل الزعتر" صارت تجد سائر مصائب الدنيا صغيرة.

نجوى بدت مصدومة لمجرد التفكير في طبيعة الحياة المفروضة في هذا المكان. قامت ونظرت إلى الخارج، شمس شهر أغسطس اللاسعة، تمنع أي أحد من المشي في الطريق. شاهدت عدة بيوت متباعدة، وساقية ماء صغيرة شبه جافة، وإلى يمين البيت بستان تفاح وبجانبه شجرة توت ضخمة، وعدة داليات عنب تشتبك أوراقها عند سور بستان التفاح، وإلى اليسار بعد غرفة الصالون بأمتار قليلة، مساحة خضراء مزروعة بالطماطم، وفي نهاية هذا الحقل توجد "الفيلا" التي أشارت سعاد نحوها، كانت مبنية ذات يوم على الطراز الإنجليزي، مطلية باللون الأبيض، شبابيكها واسعة، ومقنطرة، بوابتها الرئيسية على شكل قوس، ستعرف نجوى لاحقا أن سكان البلدة يدعونها "فيلا جورجيت"، أما جورجيت فهي آخر جدة سكنت القصر قبل عقود، وبعد موتها، وهجرة أولادها وأحفادها، صارت

الفيلا مكانا لالتقاء بعض البدويات بعشاقهن سرا في بهوها الخلفي، كان هذا قبل أن يأتي المسلحون وينتشروا في حجراتها، ويزيدوا من انهيارها.

أشارت سعاد نحو أحد البيوت القريبة، قائلة : "هذا بيت رضية" لكن نجوى لم ترد، ظلت سارحة بنظرها نحو السيارات البعيدة التي تعبر الجسر بسرعة، إلى الشمال نحو دمشق، وإلى الجنوب نحو بيروت، وهي هنا عالقة في الوسط. ربما ظلت نجوى طوال عمرها عالقة بين اسمين وحالتين، لا تعرف كيف تستقر على أي منهما، بعد ولادتها، سماها أبوها "سماهر"، وقالوا إنه اختار الاسم نسبة لراقصة أحبها وأحبته ثم ماتت محترقة على يد أحد الذين كانوا يطاردونها، ألقى عليها البنزين وأشعل في ثوبها النيران لتموت محترقة أمام عينيه، عقب هجرانها له لتذهب مع عواد الكردي، لذا ظلت ذكراها في قلب عواد، وقرر أن يُسمي ابنته على اسمها. سعاد زوجته الرابعة جن جنونها، أرادت أن تُسمي الطفلة نجوى لأنها ولدتها بعد ثلاث إجهاضات متتالية، لكن اسم سماهر ظل مسجلا في الأوراق الرسمية، ونجوى في الحياة الواقعية، لأن عواد الكردي، لم يكن يحضر في حياة زوجته وطفلته إلا ليغيب، وما كان أحد ينادي الطفلة سماهر إلا هو، ومع مرور السنوات صار عواد يناديها نجوى أيضا، لم تعد حكاية اسم سماهر تحضر إلا حين تُبرز نجوى بطاقة "قيد الدرس"، التي تحملها، والمكتوب عليها اسم يختلف عن اسمها.

كان زوجها باسم حين يريد إثارة غيظها يقول لها بسخرية: "يا ريت ضل اسمك سماهر، يمكن يكون فيه شوية حرارة بدل هالثلج"، لكن نجوى تهز خصلات شعرها الأحمر غير مكترثة بتعليقاته، أوكما لو أن الأمر لا يعنيها.

ظلت نجوى طفلة مدللة طوال حياتها، عاجزة عن تدبر أمورها من دون وجود أمها سعاد إلى جانبها، لم تعرف كيف تكبر رغم زواجها وإنجابها ثلاثة أطفال، وحملها من جديد، تعتمد على أمها في التفاصيل اليومية، والمصيرية أيضا، بل إن حالها ازداد سوءا بعد زواجها؛ فالزواج كان فرصة مناسبة كي تتشكل شخصيتها في بيت مستقل وحياة جديدة. لكن باسم عبدالله المهووس بواجباته القتالية على الحدود وفي الثكنات، لم يكن زوجا يعنيه تكوين أسرة وفق المعنى المألوف للكلمة، ولعل زواجه من نجوى لم يتم إلا لأنها بدت له مثل فرس صهباء وحرونة، ما إن اقترب منها حتى دفعته بعيدا. سحرته تلك الصبية بشعرها الأحمر المتموج، وقامتها الطويلة، نظرة عينيها القوية، تطل من وسط أهدابها الكثيفة، زادت لهيب قلبه، وكان باسم على حق، إذ لم يكن جمال نجوى من النوع المألوف، فقد ورثت من أبيها ذاك السحر الطيفي الذي يميز الكرديات، مع بشرة وردية لامعة وعينان صافيتان لا يمكن تحديد لونهما بين الأخضر والعسلي، أما شعرها الأحمر الكثيف الطويل المتموج، فكان يُسهل رؤيتها عبر عدة أمتار. لم ترث نجوى عن أمها شيئا من الملامح أو الطباع، أخذت من عواد الكردي بهاء طلته وحضوره الآسر، لكنها لم تأخذ ظرفه ومرحه وخفة روحه. أختها ملكة التي غادرت إلى البرازيل، وتصغرها بعامين، أخذت ملامح أمها، وطباع أبيها، فكانت مزيجا من النور والنار، تزوجت من رجل مهاجر، أرمل لديه ولدان، ويكبرها بخمسة عشر عاما، لكنه ثري ووسيم، افتتن بحيويتها حين شاهدها ترقص في أحد الأعراس، عرض عليها الزواج في ذات الليلة، ولم يكد يمض شهر حتى حملها معه إلى البرازيل.

بعد ستة أشهر من زواج نجوى من باسم وسكنهما في منطقة "الفاكهاني"، سوف تختلف الأمور، لأنها ستعود للسكن مع أمها في "وادي أبو جميل"، بعد أن ظهرت عليها أعراض الحمل. صارت تنام طوال النهار ولا تطيق أي رائحة لأطعمة مطبوخة أو مقلية، صارت تكره رائحة سجائر زوجها، ونفرت منه جدا، ظل الأمر عند باسم مقبولا حتى وصل إهمالها إلى بذلته العسكرية التي بقيت ملقاة على الأرض من دون غسيل أو كي، وهذا ما دفعه ليشكوها لأمها التي أشارت عليه بإحضارها للإقامة معها حتى زوال أعراض الوحم. عادت نجوى للسكن مع أمها وأخيها وهيب، أقامت في ذات الغرفة، التي احتضنت طفولتها الأولى.

سوف تمضي أشهر الحمل؛تضع نجوى ابنها حسان، وتظل مع أمها، لن تذهب إلى بيتها إلا لأيام قليلة كل شهر أوشهرين حين يكون باسم في إجازة. لم تبد متلهفة على حياتها الزوجية، ولا مولعة بالأمومة، تحس أنها مخذولة في دراستها التي لم تكملها، وفي حب فاشل، وزوج رضيت به لأنها انبهرت ببذلته العسكرية، لكن فيما بعد اكتشفت أنه لا يختلف كثيرا عن أبيها عواد الذي كان يهجرهم لأشهر متنقلا بين بيوت زوجاته، ويخلط بين أسماء أطفاله، لكثرتهم، وزوج مناضل يهجرها من أجل قضايا وطنية. ظلت صورة الرجل في ذهن نجوى مهتزة، بين أب دنجوان، فقد شرعيته في نظرها منذ منحها اسم راقصة أحبها، وبين زوج غير عاطفي غادرها بعد ثلاثة أيام من الزواج، وظلت علاقتها به موسومة بالفتور.

في السادسة عشرة من عمرها لوع الهوى قلب نجوى، أحبت ابن خالها الذي كان يدرس الطب في الجامعة الأمريكية، لكن زوجة خالها

أرسلت إلى سعاد في عقر دارها: "لمي بنتك عن ابني، أنا ما بجوزه بنت الكردي".

ظلت كلمة: "بنت الكردي...بنت الكردي" ترن في أذن نجوى طوال الليل، حتى بعد موت عواد لم تستطع عائلة أمها مسامحة سعاد لخروجها "خطيفة" مع شاب كردي لا يعرفون من أين أتى، ظلت سعاد وأولادها الثلاثة شبه منبوذين من عائلتها. كان والدها تاجر أقمشة في "سوق أياس"، أنجبت زوجته قبل موتها ولدا وبنتا، سعاد وأخاها أحمد، الذي كان يكبرها بعدة أعوام ويذهب مع أبيه لمعاونته في العمل بمتجره. تظل سعاد وحيدة في المنزل، تعتني بالبيت، وتجهز الطعام لأبيها وأخيها، لكن تتالي أوقات الوحدة الطويلة جعلها تتواصل مع بنات الجيران، والبنات عرفنها إلى عواد الكردي الذي كان يبيع الأثواب والعطور والحلي المزيفة، متنقلا بين بيروت وقرى الجبل. بهرها عواد بظرفه وخفة روحه. صارت سعاد كالمسحورة، ولم يلحظ أبوها وأخوها أي شيء لغيابهما عن البيت حتى آخر النهار، لكنهما عرفا بعد عدة أشهر حين عادا ذات يوم ووجدا ورقة مكتوبة بخط سعاد تقول إنها ذهبت لتتزوج من رجل تحبه ويحبها، لكنه فقير، وهي تعرف أنهم لن يوافقوا عليه، وهي لا تستطيع العيش من دونه، وختمت سعاد رسالتها بكلمة "سامحوني".

لم تكن سعاد زوجة عواد الأولى، لكنها لم تعرف شيئا عن زيجاته السابقة إلا بعد مرور أشهر على زواجها منه. كانت في الخامسة عشرة من عمرها حين تزوجته وكان في الثامنة والعشرين، لكنه كذب عليها بشأن عمره الحقيقي أيضا، وقال إنه في الرابعة والعشرين. عواد كذب في كل

الأشياء، فيما عدا، كرمه، خفة روحه، ولطف معشره، وجمال صوته حين يغني. إنها التيمات الأساسية التي توقع النساء في حبه، وفوق هذا كله كان صادقاً في مشاعره نحو كل النساء اللواتي عرفهن. أي أنه في الوقت الذي يقول لأي امرأة: أحبك، وأريد الزواج منك" لا يكون كاذبا في أحاسيسه ، هو لا يغرر بأي فتاة أو امرأة، له فلسفته الخاصة في الحياة، يخفي عنهن ماضيه النسائي، زيجاته وعلاقاته السابقة، لأنها تخصه وحده، وبعد أن تكتشف إحداهن ما لم يبح به، لا يواجهها بغضب، بل على العكس، يعتذر بأدب جم، مظهرا اعترافه بسوء تقديره للأمور لأنه أخفى زواجه السابق، مبررا تصرفه بأنه رجل محب وعاشق وأن الحبيبة لم تكن لترضى به، إن عرفت بزيجاته السابقة. كان هذا التبرير الذي قاله لسعاد أيضا في ذاك اليوم الذي جاءت فيه ضرتها خديجة تطرق بابها في الصباح الباكر، وتتأكد من خبر زيجته الجديدة.

كان لنجوى أخوة وأخوات منتشرين في كل أصقاع لبنان، بل هناك قسم منهم في سوريا أيضا، على حدود القامشلي من زوجة عواد الأولى العراقية الكردية التي لم يلتق بها أحد، بل كان أولادها يأتون إلى لبنان متسللين . بطرق غير شرعية عبر الحدود عن طريق سوريا، متتبعين خطى والدهم، يبحثون عنه، وفي حقيقة الأمر كانوا يأتون للبحث عن عمل، راجين أن تكون الأحوال المادية للأب أفضل مما هم عليه، وحين خاب أملهم ولم يُظهر عواد رغبة في تكرار زيارتهم توقفوا عن القدوم، إذ عليه استجداء إحدى زوجاته كي تستقبلهم، ولما كان عواد لا يُحسن القيام بهذا الدور، فقد طالب أولاده بعدم تكرار الزيارة لأنه لا يملك بيتا يستقبلهم

فيه، وكل البيوت التي يعيش فيها هي بيوت زوجاته.

لم تكن نجوى تعرف كل أخوتها وأخواتها الكُثر، بل ربما عواد الكردي نفسه لم يكن يعرف كل أبنائه. أما الأولاد فكانوا يُعرفون بانتماءات أمهاتهم، فيقال عنهم: "أولاد الشيعية، أولاد المسيحية، أولاد البيروتية، أولاد العراقية".

لم تكن زوجات عواد الثلاث الموجودات في لبنان زلفا، وخديجة، وسعاد، يلتقين إلا في الملمات والشدائد، ومع مرور السنين لم يبق بينهن شعور عدائي، بل كانت كل واحدة منهن متعاطفة مع الأخرى، بسبب سقوطها في حبال عواد الكردي، لكل منهن حكاية مختلفة تدفع للتعاطف معها، وإن كانت سعاد أصغرهن سناً، فقد كانت الأكثر ذكاء وحنكة.

"زلفا" زوجته الثانية، التقى بها عواد لأول مرة في إحدى قرى الجبل خلال جولاته لبيع بضاعته. كانت مترملة حديثا، تكبره بعشرة أعوام تقريبا. عرف فورا أنها في حداد، تجلس بين النساء والفتيات صامتة، سارحة في عالمها، لفتت انتباهه تلك الشقراء النحيلة والمنزوية، أعجبه تناسق جسدها الذي تكشف معالمه من تنورتها القصيرة والضيقة وقميصها الساتان الأسود، الذي يُبرز نهدين بارزين بشموخ. في ذاك اليوم أصر عواد على دفعها للضحك بأي شكل، أراد رؤية ملامحها حين تضحك، وكما لو أن وظيفته في الحياة تحددت في تفريج هم الأرملة التعسة، وكان من عادته أن يُنهي جلسة البيع بأن ينشد بعض المواويل للصبايا والنساء اللواتي يتحلقن حوله في دوار أحد البيوت. راح عواد ينشد مواويله عن الحلوة

التي ترتدي السواد، وكيف أن حزنها أسر لبه. كان على ثقة بقدراته، فهو لم يتعرض للصد من أي امرأة، هيئته الجسمانية التي تشبه نجوم هوليوود تجعل النساء يترددن ألف مرة قبل صده، وجهه متورد بيضاوي، بفك عريض، وأنف مستقيم، وعينين خضراوين مشوبتين بزرقة، شعره أشقر يتركه أحيانا مسترسلا عند رقبته، أما جسده فكان طويل القامة، منحوتا بدقة تبرز عضلات صدره وذراعيه، وجاذبية جذعه، الذي يشبه نمرا رشيقا.

كانت زلفا أرملة شبقة، فقدت مع موت زوجها مصدرا أساسيا لسعادتها، تعيش وحدها، لم تنجب من زوجها الذي كان عاقرا، وورثت عنه ثروة جيدة تُؤمن لها حياتها، وما أن ظهر لها عابر السبيل هذا حتى فتحت له كل الأبواب، كانت في شوق عارم لتمضية ليلة مع هذا الغريب الذي يثير فيها كل التخيلات المحمومة بالرغبات. تزوجته بعد أن حملت منه، ولم تكن على استعداد اطلاقا لأن تتخلص من الجنين. أنجب عواد من زلفا ابنتين لكن زواجه من زلفا لم ينه حالة التجوال التي يعيشها، إنها جزء متجذر في شخصيته. لا يستطيع عواد أن يعيش ثابتا في مكان وإلا سيموت، يكره القيود التي يفرضها عليه الزواج والإقامة مع امرأة واحدة. ظل يحمل بضاعته متنقلا بين قرى لبنان يبيع المناديل المعطرة للصبايا، ويغني المواويل والأهازيج للنساء الحزانى، لكن ليست هذه الأسباب فقط التي جعلت من حضوره آسرا عند كل من يراه، فقد كان بالإضافة لهذه المزايا ملما بحكايا دينية وتاريخية، عن الأنبياء والعصور الغابرة، وعن الأولياء والقديسين وكراماتهم، وكانت تلك القصص تجتذب انتباه سامعيه حين يختار سردها في وقت معين يعطفه على حدث مهم، كما يحتفظ

بكتاب ألف ليلة وليلة في جعبته وبعض الكتب القديمة، ولعل أهمها من وجهة نظره – في بعض الأحيان– كتاب "رجوع الشيخ إلى صباه"، الذي كان شباب القرى يطلبون منه استعارته، لكنه يرفض تماما، ويكتفي بأن يقرأ لهم بعض الصفحات، في ظلال أشجار الحور والسنديان، فيما القهقهات العالية ترتفع لتهز أرجاء المكان.

التقى بزوجته الثالثة خديجة، خلال تردده على مطعم صغير على طريق إحدى القرى الجنوبية، كانت تعمل على إدارته بعد هجرة زوجها إلى البرازيل على أمل الثراء السريع، لكن مضى عامان ولم يأت منه خبر، فما كان منها إلا أن حصلت على الطلاق عبر المحكمة. أحب عواد خديجة لأنه أحس بتشابهها معه، مرحة، تحب الغناء والمواويل، مستقلة، قوية، تربي ثلاثة صبيان وتدير المطعم بنجاح مكتفية بمساعدة شاب أخرس يجلس في أوقات الفراغ على الأرض فيما خديجة تدخن الأرغيلة. لم يكن في شخصيتها أنفة زلفا وكبريائها، بل كانت تتحلى بالتلقائية والتحفظ في وقت واحد، تبسط أمامك كل شيء ولا تمنحك شيئا. قصيرة، بيضاء بلون القشدة، ممتلئة بفخذين بارزين، وصدر متوثب، وخصر مشدود، وجهها دائري بملامح دقيقة ومنمنمة. اشتعلت شرارة الحب بينها وبين عواد حين حاول أحد الزبائن مضايقتها والتودد لها بفظاظة، قام عواد عن الطاولة وأمسكه من ياقة قميصه مهددا بضربه، طرده من المحل على مرأى ومسمع من الجميع، كما لو أنه سيد المكان، ثم تقدم من خديجة معتذرا بأنه لم يحتمل رؤية أحد يضايقها. أحبت خديجة عواد، وقامت هي بعرض الزواج عليه، لم يتردد في القبول، ولم يذكر لها شيئا عن زلفا وابنتيه، كما أنها لم

تسأله مخافة معرفة تفاصيل تعرقل الزيجة. أمضى عواد أسبوعا كاملا في بيت خديجة، من دون أن يغادر إلى منزل زلفا؛ التي اعتادت غيابه ليومين أو لثلاثة، لكنها عرفت هذه المرة أن وراء غياب زوجها امرأة ما، وترددت في إرسال أحد ليتتبعه، ويرجع بخبر لا يسرها ينتشر في الضيعة، وتصير أضحوكة للجميع، بعد أن انتقدوا زواجها من رجل يصغرها بعشرة أعوام، غريب وفقير وجوال. لكن زلفا وجدت أنها تأخذ من عواد أكثر بكثير مما تمنحه له، فهو لم يكن طامعا بأموالها، كما أنه نزيه جدا، حنون، وقادر ببراعة على منحها متعة لم تعرفها. لذا تغاضت عن غيابه المتكرر مخافة أن يمضي ذات يوم ولا يعود، بل إنها حين تتعرض لمضايقات نساء الحي وتلميحاتهن بخيانته، تبتسم لهن بمكر، مع ابتسامة ذات مغزى، وهي تقول:

"عواد.. يي لو بتعرفوه ..كله رقة وحنية".

خديجة، أرادت فيما بعد الاستئثار بعواد لها وحدها بعد أن عرفت عن طريق أحد رواد المطعم بوجود زوجة أخرى في حياته، لم تتوان عن إرسال المراسيل لزلفا كي تؤكد زواجه، ولما لم تحرك زلفا ساكنا، جاءت خديجة برفقة ابنها الأصغر ذي السبعة أعوام للتعرف إلى ضرتها. لم يقع بينهما عراك أو شجار، فقط راقبت كل منهما الأخرى بعين فضولية، كما لو أنها تجس أسرار إعجاب عواد بها.

كان لزلفا شكل سيدات المدن الأنيقات، وخديجة تشبه فلاحة غضة حسنة الطلعة. رأت كل منهما في الأخرى ما ينقصها. الأناقة والإتيكيت والتعامل الراقي عند زلفا، الشباب والحيوية والبساطة عند خديجة. انتهت

الزيارة بصداقة ابن خديجة مع ابنتي زلفا، اللتين أمضيتا الوقت، وهما تقدمان له الكعك والألعاب وتحاولان استرضاءه ليلعب معهما.

عرف عواد بزيارة التعارف تلك، لكنه لم يعقب عليها طالما أن إحدى زوجتيه لم تنغص عليه حياته، وعاش متنقلا بين بيت الجبل وبيت الجنوب حتى زواجه من سعاد خطيفة.

أرسل الحاج رضا والد سعاد من يبحث عنها في كل أصقاع لبنان. حين عرف الأب ما فعلته ابنته أراد استعادتها بأي شكل، ليس لينتقم منها، بل لأنه لم يرغب لها بأي نوع من الذل، وبدا مستعدا لمسامحتها، لو عادت هي وزوجها، وأُعلن زواجهما أمام الجميع. كان عاقلا ومتزنا في تفكيره نحو البنت الصغيرة، بأنها لم تجد من يوجهها ويرعاها، وهو أخطأ حين تركها عرضة لثرثرات بنات الحي. لذا ظل يسعى للبحث عنها، حتى عرف بوجودها في إحدى مناطق الشمال، تسكن في بيت وضيع، تمضي أوقاتها وحيدة في كثير من الأحيان لأن عواد يذهب ليبيع البضاعة التي تؤمن لهما العيش. تبدل عواد بعد إحساسه بالمسؤولية نحو زوجته الصغيرة، هذا النوع من الاتكال عليه لم يشعر به من قبل مع زلفا أو خديجة. صار مغتما بسبب حاجته للمال، كي يؤمن معيشة سعاد بشكل مقبول، ولا يجعلها تندم على فرارها معه. كذب على كلتي زوجتيه بأنه سيقيم لمدة معينة في الشمال، لأن صديقا له ينوي القيام بمشروع تجاري ويحتاجه إلى جانبه.

ظنت سعاد في البداية أن والدها ينوي قتلها حين عرفت من عواد أن أباها يُرسل مع كل التجار الذين يشتري منهم بضاعته ليسأل عنهما، لكن

حين فتحت الباب ذات صباح، ووجدت الحاج رضا يقف مطأطئ الرأس أمام العتبة ألقت بنفسها بين أحضانه وشهقت بالبكاء.

عادت سعاد للحياة في "وادي أبو جميل" اشترى لها أبوها بيتا جميلا لتسكن فيه مع زوجها. غفر لها الأب فعلتها، لكن أخاها أحمد لن يسامحها أبدا، وستظل العلاقة بينهما متوترة طوال حياتهما، وبعد وفاة الأب سيضع أحمد يده على ميراثها، ولن تنال من نقود أبيها سوى البيت الذي تسكنه وبضع ليرات يرسلها لها أخوها في نهاية كل شهر.

عرفت سعاد فداحة فعلتها حين فتحت الباب ذات صباح، ووجدت أمامها امرأتين، لكل منهما هيئة تختلف عن الأخرى، شهقت المرأتان في وقت واحد، قالت زلفا لخديجة، وهي تغطي فمها بيدها: "يي شو صغيرة"، أما خديجة، فقد أجابت بصوت مرتفع قاصدة عواد بقولها :

"يبعتله حمى عترها على بكير".

اقتحمت المرأتان البيت تبحثان عن زوجهما الذي كان ما يزال نائما في سريره، لم تفهم سعاد ما يجري إلا حين اقتحمت خديجة الغرفة مهددة ومتوعدة عواد الخائن الغدار، أما هو فمن هول المفاجأة غادر البيت بثياب النوم، بعد أن عجز عن الدفاع عن نفسه مكررا كلمات مفادها: "خديجة ما تزعلي رح اشرحلك الموضوع.. زلفا عيوني ليه اجيتي معها"، ولما انتبه لوجود سعاد، التي تضاءل حجمها أمام زلفا الطويلة والأنيقة، وخديجة التي صارت أكثر امتلاء وعرضا، صار يردد:

"سعاد.. سعاد.. يا تقبريني.. رح فهمك كل شيء".

بعد مغادرته، لم تنطق زلفا بكلمة، ظلت تجول ببصرها بين الفتاة الصغيرة التي تكبر ابنتها بأعوام قليلة وبين خديجة التي كانت تغلي وتزبد وسط شتائم لم تسمعها زلفا أو سعاد سوى في الشارع، ثم تقطع حبل شتائمها موجهة كلماتها لسعاد قائلة: "ولي أنت ليه تزوجتيه، ما قالك انه عنده نسوان اتنين".

مع مرور الزمن ستصير ذكرى هذه الحادثة طرفة تحكيها سعاد في الجلسات النسائية، حين تدور الأحاديث عن خيانة الرجال وألاعيبهم، أما علاقتها مع زلفا وخديجة فقد ظلت محايدة، تستقبلهما أحيانا عندما تأتي إحداهما مع عواد لقضاء مصلحة ضرورية في بيروت. زلفا أمضت في ضيافتها أياما خلال تلقيها العلاج في الجامعة الأمريكية من ورم في ثديها، وكان عواد يقول لسعاد حين يُحضر زلفا معه: "ولو.. زلفا متل أمك، ما الها حدا مسكينة".

لم تكن سعاد تحمل ضغينة نحو زلفا، بل تصفها بأنها "صاحبة أصل"، أما حين تأتي خديجة فيصير البيت مثل بركان من لهب، إذ تتدخل في أماكن وضع الأثاث، تقدم اقتراحات أو تبادر في تنفيذها من دون استئذان، تحاول التأكيد على سطوتها بكل الطرق. لم تكن سعاد تُظهر تذمرا واضحا خوفا من فضيحة تقوم بها ضرتها، فقد سبق لخديجة أن غضبت ونزلت الأدراج، وهي تبرطم بكلمات نابية سمعها كل سكان العمارة في "وادي أبو جميل". عواد كان يتدخل قائلا لها: "خديجة لسانها طويل بس قلبها أبيض، اعتبريها متل أختك الكبيرة".

مات عواد، وهو يتجول في إحدى القرى، وجدوه مسجى على جانب طريق فرعي، لم يُعرف سبب حقيقي لموته، كما أن بضاعته وأمواله كانت موجودة كلها ولم تُسرق، وصل الخبر إلى أولاد خديجة الذكور في المطعم عبر أحد السائقين الذين تعرفوا عليه، حمله أولاد خديجة إلى بيت أمهم، حيث قاموا بغسله، ثم نقلوا جثمانه إلى بيروت ليُدفن على أرضها، كما أوصى زوجاته.

بعد موته، صارت الزوجات الثلاث يتبادلن زيارات كلما أرادت إحداهن الذهاب لبيروت أو الجبل أو الجنوب، يستقبلن بعضهن بترحاب، تأتي كل واحدة برفقة أحد أولادها، تعرفهم على أخوتهم، وبمرور الوقت سيصير اسم الزوجات بعد زواج أبنائهن، وإنجابهن أحفادا: "تاتا خديجة، تاتا زلفا، تاتا سعاد"، ولعل هذه الألفة كان السبب فيها الطبيعة الشخصية لسعاد، التي أرادت أن تعوض ما فقدته بزواجها من عواد. ظلت سعاد تستقبل زلفا كلما جاءت إلى بيروت للعلاج، ومع فارق الأعوام الذي يزيد على العشرين، قامت بينهما صلة أشبه بعلاقة الأم مع ابنتها، تعلمت سعاد من زلفا أصول الإتيكيت واللياقات الاجتماعية، والاعتناء بالمظهر الخارجي، واستمرت علاقتهما حتى موت زلفا بالسرطان في مستشفى الجامعة الأمريكية، حيث نقلتها سعاد مع ابنتيها إلى قريتها في الجبل كي يتم دفنها هناك، أما توتر علاقتها مع خديجة، فانتهى مع موت عواد، ومع نزوح خديجة من الجنوب إلى بيروت، وسكنها مع أولادها في "بير العبد"، ظلت بينهما زيارات بين حين وآخر وسط دهشة كل من يعرف أنهما ضرتان، إلا أن خديجة أيضا ما عادت تحمل ضغينة لسعاد، وكانت تطلب

من أولادها الذكور زيارة "خالتهم" ورعاية "ملكة، ونجوى، ووهيب"، فيما بعد هاجر أولاد خديجة إلى كندا في سنوات التسعينيات، وفتحوا متجرا في "مونتريال"، واصطحبوا أمهم إلى هناك.

سعاد التي لم تعرف رجلا آخر غير عواد، ظلت طوال حياتها تغني في أوقات الصفا الأغنية التي غناها لها في أول مرة، رغم معرفتها أنه كان يغنيها لكل زوجاته وحبيباته السابقات:

"ميلي عليا ميلي.. ليلي...يا أم الفستان النيلي

يا نمنم خانم قلبي نار

خدك كهربا يضوي... نمرة ١٢ قنديلي

يا نمنم خانم قلبي نار".



وضعت نجوى حملها بعد مضي أسبوعين على سكنها في "دير السرو". استيقظت عند الرابعة فجرا على مغص حاد، ولما أيقنت أنها ستضع مولودها الرابع نبهت أمها التي أيقظت بالتالي قريبتها نجمة. عرفت الأم أن الحامل ستضع وينبغي عليها إيجاد سيارة بسرعة لتنقلها إلى أقرب مستشفى. لبست سعاد عباءتها السوداء وأسرعت إلى بيت رضية، عرضت رضية أن تقوم بتوليدها، فهي لديها خبرة كافية، كما أن كثيرا من البدويات ولدن على يدها، لكن سعاد رفضت الأمر تماما، وطلبت منها المساعدة في نقلها إلى المستشفى.

طلبت سعاد من نجمة البقاء مع الأطفال، أخذت الحقيبة الصغيرة التي تضم ثياب الأم والطفل الوليد، وصعدت هي ونجوى ورضية إلى سيارة "بيك آب" حمراء متهالكة، كانت تقودها ريما ابنة رضية. لم تكن ريما تجاوزت السادسة عشرة من عمرها، لكنها تقود سيارة "البيك آب"، كما يقودها الرجال، بسرعة وخفة، بدون وجل، فقد اعتادت الذهاب مع أمها

إلى القرى البعيدة لبيع بضاعتهما أو لجمع قطع الحديد وبيعها، لذا كان لها قلب جسور يجعلها قادرة على تحمل وجود امرأة تصرخ من آلام الوضع، كما أن تجارب ربما السابقة مع ولادات أخواتها الكبيرات، أمدتها بخبرة كافية عن صرخات النساء في ساعات ما قبل الولادة، لكن نجوى لم تكن تصرخ، بل تكز على أسنانها، وتخربش يدها وفخذها، لذا استغربت ربما ألا تقوم بالصراخ كما تفعل البدويات.لم تكن ابتسامة الفجر ظهرت بعد، وكان ضوء السيارة المتهالكة خافتا، ينعكس على الأسفلت الرمادي، سعاد تتلو آيات من القرآن، ونجوى تسأل بين حين وآخر: "وين المستشفى، لسه بعيدة؟"

في الساعة العاشرة صباحا، عادت قافلة النساء إلى البيت، ومعهن طفل صغير تحمله نجوى بين ذراعيها، كان له وجه قمري مستدير وأبيض، شعره أسود ناعم مثل شعر جدته سعاد وأخته ليلى، فرح حسان بأخيه الصغير، وليلى مارست معه دور الأمومة منذ اليوم الأول، أما ياسمين الصغيرة، فلم تكن تعرف مشاعر الغيرة بعد، وأن هناك من سيأخذ الاهتمام أكثر منها. ظل الطفل من دون اسم حتى اليوم الثالث حتى اتفق الجميع على تسميته "حسن"، هذا اسم جده لأبيه وأراد باسم من قبل أن يطلقه على ابنه الأكبر، لكن نجوى رفضت حينها، وأصرت على زيادة حرف الألف ليكون حسان بدلا من حسن، ولما كان باسم غائبا، مجهول المصير، غمر نجوى إحساس بأن الطفل ربما لن يرى والده، وكما لو أنها أرادت أن تربطه بجذور بعيدة، هي ذاتها لا تعرف ما يكفي عنها، لذا وافقت أن تسميه حسن.

* * *

ما حكاه باسم عن والده، أنه كان يعمل نجارا في ميناء حيفا بعد ارتحاله من قرية "قدس" في الجنوب اللبناني، ثم تزوج من فاطمة، وهي فتاة فلسطينية من إحدى قرى حيفا، استقر معها هناك، وأنجبت ابنهما باسم الذي اختار له هذا الاسم لأنه ولد مبتسما، لكن فاطمة ستترمل بعد عامين من ولادة ابنها حين يموت حسن في حادثة على ظهر إحدى السفن، وفي سنة النكبة عام ١٩٤٨ هجرت فاطمة إلى لبنان مع من هجروا، هربت مع مجموعة من أقاربها على ظهر قارب صغير. كانوا على وشك الموت غرقا، لكنهم وصلوا إلى ميناء بيروت. لم تحمل فاطمة معها أي وثائق أو أوراق ثبوتية تثبت زواجها من لبناني، وتمنح من خلالها الابن جنسية أبيه، غادرت بيتها في حيفا تحت القصف المدوي، ظنت أنها ستعود قريبا، ولم تفكر أنها ستغادر فلسطين بلا عودة. ركبت القارب مع من ركب من أقاربها، وضعت ابنها في حضنها كي تحميه، إما أن يعيشا معا أويموتا معا.

في لبنان ظلت تتنقل مع ابنها من مكان إلى آخر حتى استقرت في "مخيم شاتيلا" في بيروت. ظنت أنها ستعود إلى فلسطين بعد شهر أوشهرين، لكن بقاءها طال، ولما مرت السنوات وعجزت عن إثبات هوية ابنها اللبنانية، تم تسجيله بأنه "قيد الدرس" لأن والده ينحدر من إحدى القرى السبع" التي أصبحت ضمن الأراضي المحتلة أيضا.

ماتت فاطمة حين كان باسم في الثامنة عشرة من عمره، أكل المرض خلاياها، رحلت من دون أن تترك لابنها سوى صرة من الذكريات يحملها معه أينما ذهب.

في اليوم الذي سيذهب فيه باسم إلى "دائرة النفوس"، لتسجيل وثيقة ميلاد ابنه حسان، سوف يدرك أن هذا الطفل انضم إلى سلالة "قيد الدرس" التي ستظل مستمرة، ابنه منزوع الهوية مثله؛ ربما من تلك اللحظة صار لديه إلى جانب هوسه بالنضال، شغفا بقراءة التاريخ، للرجوع إلى الوراء والقبض على اللحظة التاريخية العائمة التي نتجت عنها اللاهوية.

بعد سنوات كثيرة، وفي الأوقات النادرة بهدوئها التي ستجمعه مع ابنه حسان، سيكرر الحكاية كما لو أنه يُكلم نفسه: "ليس البشر الذين يفقدون هويتهم فقط. الأماكن تتجرد قسرا من انتمائتها في كثير من الأحيان. لسنا نحن فقط من خسر هويته"!

ماذا بقي من القرى السبع، قرى جبل عامل، سوى آثار تحكي عن ماض! ماذا بقي من قدس، سوى اسمها؟

لم ينقذ ايمان باسم – بتاريخ الحكاية الأصلية– أبناءه من الانتماء لبيروت فقط، هم لم يعرفوا مكانا غيرها، إنها الوطن الوحيد بالنسبة لهم، ومغادرتهم لها هو التشرد بعينه.

حكايات باسم البعيدة عن أجداد رحلوا وأرض لا يعرفها تبدو لهم مجرد حنين خاص، يؤمن به كما يؤمن المتدين بوجود الله من دون الحاجة لرؤيته. يروي الحكاية بتوتر وينفعل وهو يقص عليهم ما كان يوما. باسم لم يكن يعتبر قصته فردية، مشكلته ليست شخصية فقط، بقدر ما ترتبط بالحاجة إلى الانتماء للأرض وحلم العودة إليها، لكن الحلم بالنسبة له ارتبط بحمل السلاح، بضرورة القتال حتى يتحرر جنوب لبنان وتعود

فلسطين عربية.

يستمتع باسم في إعادة سرد ما قرأه في كتب التاريخ عن بلاد الشام في أيام الإمبراطورية العثمانية حين كانت العائلات في لبنان وفلسطين وسوريا موزعة عبر الحدود؛ بل لم تكن هناك حدود واقعية بين البلدان التي قسمتها معاهدة "سايكس بيكو"، ثم في عام ١٩٢٢ عقدت بريطانيا وفرنسا اتفاقية "بوليه نيو كامب"، وتم اقتطاع سبع قرى من جنوب لبنان ألحقت بدولة فلسطين، وظل سكان القرى السبع يحملون جنسيتهم اللبنانية منذ ولادة دولة لبنان الكبير التي أعلنها الجنرال غورو بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وتوزيع إرث الدولة العثمانية بين فرنسا وبريطانيا، وحتى دخول الاتفاقية حيّز التنفيذ عام ١٩٢٤ عندما تمّ ضمّ القرى السبع رسمياً الى أراضي فلسطين. يحكي باسم أنه حين قام الانتداب الفرنسي بإجراء إحصاء رسمي عام ١٩٣٢، امتنع كثير من اللبنانيين ممن يسكنون في مناطق بعيدة في الجنوب والبقاع والشمال عن تسجيل أسمائهم في دوائر النفوس تمسكا بالهوية العربية ورفضا للانضمام للبنان الكبير الذي يحكمه الفرنسيون، أو خوفا من الخدمة العسكرية الإلزامية، أوهربا من دفع الضرائب.

وبعد حلول نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ واحتلال إسرائيل القرى السبع وتهجير أهاليها وتدميرها ومحو معالمها، أقيمت مستعمرات بأسماء عبرية على أرضها بحيث تم تبديل أسمائها التاريخية الأصلية بهدف إلغاء هويتها العربية؛ رغم أن أبناء القرى السبع في السنوات الأولى لم يبتعدوا كثيراً عن قراهم بل بقوا على مقربة منها، لأن الجيوش العربية وعدتهم

بعودة قريبة إليها. الوعود لم تُنفذ ومع مرور الزمن صار أبناء القرى السبع مهجرين أيضا انتشروا في بيروت، والضاحية الجنوبية، في وادي أبو جميل، والخندق الغميق.

وفي عام ١٩٦٠ حاولت السلطات اللبنانية حل قضية سكان القرى السبع، بالإضافة إلى آلاف من طالبي الجنسية من الأقليات الآشوريون والكلدان والسريان والأكراد، بالإضافة إلى مكتومي القيد. وقد أعطى هؤلاء جميعا إشعارات تفيد أن طلباتهم هي قيد الدرس. ثم تحولت هذه الإشعارات مع مرور الزمن إلى ما عرف بـ"هوية قيد الدرس". هكذا ورث هؤلاء هذه الجنسية إلى أبنائهم، ثم أحفادهم حتى بات هناك نحو ٣٠ ألف عائلة لبنانية "قيد الدرس"..

"أليس هذا محوا للهوية، ليس للأرض والناس فقط بل للذاكرة أيضا".

كان باسم يختم حديثه بهذه العبارة المتأملة التي تعوم في فضاء سقف البيت الصفيحي ولا تجد لها صدى.

***

ليست اللعنة في اليتم المحسوم أمره لصالح الموت، بل في تجاذب القدر بألا يحسم موقفه لصالح الحياة أو الغياب. لم يكونوا يتامى، لكنهم عائلة وحيدة بلا أب، أو مع أبٍ مجهول المصير، عليهم تدبر حياتهم من دونه، وتقبل لعنة حضوره وغيابه.

كرهوا الشتاء، لأنه يجلب جملة من المشاكل اليومية التي يمكن

وصفها بالمصائب الصغيرة.عند انقطاع الكهرباء في معظم الليالي يجلسون جميعاً في غرفة الجلوس، حسان وليلى على الأرض بالقرب من قنديل الكاز، أو مصباح الكيروسين أو الشموع المشتعلة التي تلصقها نجوى على طبق معدني بقطرات الشمع الذائب.

يقتربون من المدفأة المتوهجة، وهم يشربون الشاي المغلي مع السكر، وصوت الأمطار الكثيفة تتساقط على السقف الصفيحي لكنهم لا يبالون بها إلا في حال تسربت مياه عبر الشقوق، وهذا ما يحدث في كثير من الأحيان، عندما يكون المطر غزيرا يضعون أوعية بلاستيكية على الأرض في الأماكن التي تتسرب منها مياه المطر، أو أقمشة قديمة عند نهايات الحيطان المتشققة. تلك الشتاءات القاسية التي أمضوها في "دير السرو " ستترك لديهم جميعا أوجاعا أبدية، لا ينفع معها دواء.

تغفو الجدة سعاد إلى جانب المدفأة المشتعلة، نجوى تنشغل في تحريك مؤشر الراديو الصغير حين تكون ياسمين نائمة، وحسن يتهته بأحرفه الأولى.

يُصدر راديو نجوى صوتا مشوشا مزعجاً كلما انتقل المؤشر من إذاعة إلى أخرى، تبحث عن أغنية طربية لعبد الوهاب أو ليلى مراد أو أسمهان، كي تضيع معها ساعات العتمة، وفي حال عدم استقرارها على أي محطة تُذيع الأغنيات أو برامج تساعد الوقت على المرور، سوف تُقفل نجوى الراديو، وهي تطلق سيلاً من لعناتها وغضبها العارم على مصيرها الذي رماها في هذه البلدة، كي تحيا في عزلة تُميت روحها. لن تتأخر نجوى عن تذكير أولادها في كل مرة يتعكر مزاجها بأنهم السبب في وجودها في هذا

المكان، وفي بقائها زوجة لرجل مقاتل يُفضل البقاء في البراري والجبال – بحجة النضال–على أن يعود إلى بيته. في بعض الأحيان كانت نجوى تنهار وتتكلم بصوت أقرب إلى الشجار كأنها تخاطب الله، وتسأله لماذا لم يوجد في حياتها رجل تعتمد عليه، لماذا ابتلاها بأب "نسونجي" وأخ "أهبل" وزوج "مقاتل"، ثم أتت هذه الحرب اللعينة لتشردها وترميها في هذه المنطقة، وفي هذا البيت الذي يُذكرها في كل لحظة بواقعها البائس. تتدخل أمها سعاد في حوارها العبثي قائلة: "وحدي الله نجوى.. إحنا أحسن من غيرنا، ما صاير علينا شي، حمدلله الاولاد بخير وعافية، شو كنت بتعملي لو مات حدا من ولادك بالحرب". تتسع حدقتا عينا نجوى فجأة وكأن كلام أمها البسيط والبديهي نبهها إلى حقيقة غائبة عنها، تجلس إلى جانب ابنتها الصغرى وتضمها إلى صدرها، ثم تمر بعينيها بنظرات حنونة على حسن الغافي بهدوء في فراش مرتجل من مجموعة بطاطين تم تحويلها إلى سرير صغير.

***

ظلت ياسمين محور اهتمام الأم أكثر من الصغير حسن الذي كان قليل البكاء، كثير النوم، فقد ولدت بجسد ضعيف ورفضت أخذ كل أنواع الحليب كانت تبكي باستمرار لأنها مصابة بإسهال دائم يُفقد جسمها كل السوائل الموجودة فيه. تبدو صفراء ضعيفة بشعر أشقر وعينين يميل لونهما للأخضر الفاتح، مثل عيني نجوى، وجهها شديد الشحوب، كما لو أنها على وشك الموت، لكنها لم تمت، ولم تنفع معها كل الأدوية المضادة للإسهال التي وصفها الأطباء.

حين كانت نجوى في بيروت حرصت على القيام بالعناية الصحية اللازمة التي تحتاجها الطفلة، ورغم هذا فإن ياسمين ظلت طوال ثلاثة أشهر بعد ولادتها تتغذى بقطرات من المياه المستخلصة من حليب الأرز المسلوق والمحلاة بقليل من السكر، وفي الشهر السادس صارت تأكل الموز المهروس. كانت نجوى تخجل من شكل ابنتها، الذي يشبه أطفال المجاعات، لا تحب إظهارها أمام الجيران لأنهم يُظهرون شفقتهم على تلك الطفلة الضئيلة والمريضة، ولا يتورعون أحيانا عن تقديم مواعظهم بأن تتوجه بشكرها إلى الله، لأنه رزقها بأطفال آخرين، لذا ليس عليها أن تحزن في حال موتها، لأن الله سيكون رحيما في اختيار الموت بدلا من عذاب المرض المستمر.

تبكي نجوى بحرقة حين تسمع مثل هذا الكلام من إحدى الجارات، تسيل دموع حسان وليلى، يتخيلان أن ياسمين ستموت فعلا بين ليلة وضحاها، لكن نجوى تنسى ما قاله الجيران حين تشاهدهما يجهشان بالبكاء، وتبدأ بالصراخ ونهرهما، ثم تخاطب نفسها بصوت مرتفع متمتمة بأن الصغيرة ياسمين ستعيش بإذن الله، وستكون بصحة جيدة.

في بعض الليالي تبكي ياسمين بكاءً حادا لا ينقطع، حتى يظنون جميعا أن أنفاسها ستتوقف. في مثل تلك الأوقات تأخذها نجوى إلى بيت رضية التي لا تثق بالأطباء وتتكل على الوصفات الشعبية في علاج أولادها التسعة، وأحفادها أيضا، ومن يقصدها من أولاد وبنات الجيران.

كانت رضية بمثابة حكيمة "دير السرو"، لديها لكل داء دواء،

فالصداع النصفي علاجه قطع من البطاطس النيئة يتم تعصيب الرأس بها، أما الصداع الكامل، فتقوم بتبريد الدهن، وتدليك فروة الرأس به وربطه بقماشة تنتهي بعصا خشبية كي تُحكم تضييق الأوعية الدموية المتسعة، آلام المعدة تنتهي مع الحليب البارد والنعناع المغلي والبابونج، الالتهابات النسائية علاجها مغطس من الخبيزة، أما من يأتي إليها وهو يشكو من آلام في المثانة، فبعد أن تجبره على شرب لتر من مغلي البقدونس وشعيرات الذرة تطلب منه تجرع نفس الوصفة يوميا لمدة أسبوعين، الجروح علاجها مسحوق القهوة، والنفس المكتئبة لا تعود لحالتها الأولى إلا بعد تذويب قطعة من معدن الرصاص وصبها في وعاء من الماء البارد يتم وضعه قرب رأس المُكتئب أو المحسود.

نجوى لا تثق تماماً بوصفات رضية، لكنها تلجأ إليها بسبب اليأس من تهدئة ابنتها، وبسبب حاجتها للمساعدة في حمل الطفلة وهدهدتها.

تجلس رضية وسط سجادة كبيرة على الأرض قرب مدفأة من الحطب، حولها في الغرفة المستطيلة خمس طراريح سميكة للجلوس، وفوق الطراريح مساند كبيرة محشوة بالصوف. الثياب التي ترتديها رضية لا تتغير صيفا أو شتاء، إنه لباس أسود من عدة طبقات لا يبين له بداية من نهاية إذ يتداخل مع غطاء الرأس الأسود والشفاف، الذي تضع تحته غطاء آخر سميك بعض الشيء، وفي وقت البرد تلبس كنزات صوفية تحت ثيابها، وعلى رأسها عصبة سوداء فوق غطاء شعرها، وتحت ذقنها وشم أزرق، يتمدد بوضوح حين تبتسم وتنعكس عليه لمعة سنتها الذهبية.

تضع رضية الطفلة في حضنها، تنكمش ياسمين قليلا، تبدو ضئيلة جدا وسط العباءة السوداء الواسعة، تبدأ رضية أولا في الغناء لها والتصفيق، قبل أن تستمع لشكوى نجوى المتكررة من "الإسهال" والبكاء الدائم. تسأل رضية نجوى عن السبب في عدم التزامها بالوصفة التي ستوقف الإسهال، تهز نجوى رأسها بصمت وتمط شفتيها، كما لو أنها تكشف عدم اقتناعها تماما بتلك الوصفة العجيبة المكونة من ثلاث قطرات من القهوة العربية مع قطرتين من عصير الليمون لمدة عشرة أيام قبل أن تتناول ياسمين أي طعام، تحكي رضية بثقة عن وجود جرثومة في بطن ياسمين تسبب لها الإسهال والألم، ويجب القضاء على هذه الجرثومة.

بعد قيام رضية بفعل الهدهدة والغناء تصنع لها الوصفة المعروفة للأطفال عبر العالم كله مزيجا من اليانسون والكراوية، وربما نوعا آخر من الأعشاب تضيفه سرا. تعطي الطفلة فنجانا صغيرا من دون أن تنزلها عن حضنها وتستمر في الكلام والهدهدة حتى نوم الطفلة، وتكون هذه النتيجة الطبيعية لساعات البكاء المتواصل.

***

في "دير السرو" سمعوا الكثير من الحكايات والأساطير المنتشرة عن بقايا دير موجود عند أطراف البلدة، التي أخذت اسمها منه؛ دير حجري غامض يتميز ببنائه القوطي، وأعمدة عتيقة تحيط به مثل حراس لحمايته.

قيل إنه تم دفن جثة الأمير دراكولا في أحد أركان الدير، فقد أمضى ردحا من شبابه في مدينة أدرنه في تركيا، ولأنه كان مهووسا بالقتل فقد ذبح

مائة ألف من الرجال والنساء، وبسبب مجازره الفظيعة أرسل السلطان العثماني ليقتص منه، ففر دراكولا إلى لبنان واختبأ في بلدة "عنجر"، ومنها انتقل إلى دير غامض مخفي عن الأعين وسط غابة أشجار السرو، قيل إن دراكولا مات ودفن فيه، وأن روحه تخرج كل ليلة، بحثا عن مزيد من الدماء. كان يشاع أيضا بأن الدير مسكون بالأشباح التي تحرس كنزا موجودا تحت الأشجار الكبيرة، أو في المساحة الشاسعة من حوله، لكن كل هذه الأقاويل لم تمنع أصحاب القلوب الجسورة من الصبيان اللعب في ساحة الدير، كما لم تصرف العشاق عن لقاء معشوقاتهم في ظل أشجار السرو والجميز التي تحيط بالدير من كل الجوانب.

أما الجسر الذي يبدو قريبا من الدير، فلم يكن مجرد معبر بين مكانين؛ كان جزءا صغيرا من طريق "المصنع" الدولي المؤدي إلى دمشق، لكن أهميته لا تنطلق من موقعه فقط، بل لأنه سوق همجي يشبه لغة غوغائية لا يمكن فهمها إلا بين أصحابها.

عند يمين الجسر تبدأ حدود "دير السرو"، التي تمتد إلى الداخل، وتتفرع إلى تجمعات سكنية متلاصقة، يشغل الفلسطينيون الجزء الأبعد من "دير السرو"، فيما يسكن البدو قريبا من النهر، أما الفلاحون فقد شيدوا بيوتهم بشكل متباعد حسب الأراضي التي يمتلكونها؛ ورغم هذا ظلت هناك مساحات من الأراضي نمت فيها أشجار سامقة من الجميز، والسرو، والبلوط، والدلب، والحور إلى جانب أراض أخرى تم استثمارها من قبل مختار البلدة في زراعة التفاح والكرز والمشمش، والتين، والعنب، فقد كانت أراضي "دير السرو" تتميز بالخصوبة كسائر الأراضي في سهل البقاع،

بسبب شهور الشتاء الطويلة التي تستمر من أواخر سبتمبر حتى مطلع أبريل.

تنعكس ظلال الشمس عند الظهيرة على البيوت الصفيحية المتلاصقة عند الجسر، رائحة صهد وسخونة تمتزج مع نسمات تعبر أشجار الصنوبر والزيزفون الباسقة قرب النهر، وتترك في الجو رائحة منعشة تبث خدرا لذيذا. النساء البدويات تقسمن البيت الصفيحي إلى غرفتين، الغرفة الداخلية للمبيت، والخارجية التي تطل على الشارع الرئيسي للبيع والشراء. ترتدي البدويات عباءات من المخمل في الصيف والشتاء، ويضعن منديلا حول الرأس يربطنه خلف الرقبة، لا يلبث أن يتساقط وهن يتفاوضن مع الزبائن، بأسلوب يجمع بين جرأة البيع،ودلال الأنوثة.

يمر الجسر فوق نهر"غزيِّل"، الذي يقل منسوب مياهه صيفا، ويفيض شتاء. تنمو بجانب النهر الأعشاب القصيرة وترتفع أشجار الحور والسرو، والصفصاف، المشهد يمنح إيحاء بالجمال لو لم تكن تنتصب على الجانب الأيمن من الجسر دكاكين الصفيح، تناقض الجمال الطبيعي للنهر. يشغل البدو تلك الدكاكين ليبيعوا بأسعار الجملة بضائعهم المكونة من الحمضيات، والفاكهة على أنواعها، والدخان، والشوكولا، والعطور، وبعض المؤن البيتية من زيت وسمنة وأنواعا مختلفة من المعلبات. كانت هذه التجارة هي الشكل الظاهر للجسر، لكن في الخفاء تُعقد صفقات تهريب مخدرات، أبطالها عدة عوائل من البدو وغرباء تظل هوياتهم مجهولة، إذ لا يمكن التمييز أبدا بين عابر سبيل مسافر يتوقف لشراء البضائع، وبين آخر غامض يأتي لتسليم نقلة من "الحشيش"، فوجوه القادمين تتبدل وتتغير فلا

يتكرر ذات الوجه إلا مرات قليلة، بحيث لا يكون ملحوظا. لم يكن كل من يعمل على الجسر له ضلع في صفقات مشبوهة، لكن كل من يعمل أو يسكن في مكان مجاور يعرف ما يدور؛ إذ ليس هناك مكانا للأسرار.

لا أحد يعرف تاريخ الجسر تحديدا، كيف بُني، متى نشأ، وكيف تحول إلى سوق، لكن المعروف أن البدو سكنوا منطقة "دير السرو"، بعد أحداث مخيم "تل الزعتر" و"الدكوانة"، فقد هربوا من هناك بعد "حادثة البوسطة"، وانقسام بيروت بين شرقية وغربية، وجاءوا إلى البقاع، واستوطنوا هذه المنطقة، ربما الثابت أيضا أن "الجسر" تحول إلى سوق بعد الاجتياح الإسرائيلي عام ١٩٨٢ حين ازدهر سوق "المصنع" الذي كان يبيع البضائع المهربة أيضا.

لم يسهم مرور الزمن في تشكيل علاقة ألفة بين البدو والفلاحين من ملاك الأراضي – في "دير السرو"– الذين ظلوا ينظرون للبدو بدونية، ولا يمكن أن يتم بينهم أي تزاوج، وإن حدث فغالبا ما يكون "خطيفة"، حين تهرب بنت فلاحة مع شاب بدوي، لأن أهلها رفضوا تزويجها له.كان يوجد في المنطقة أيضا حي فيه خليط من اللبنانيين والفلسطينيين المهجرين من بيروت، استقروا ولم يفكروا بالعودة، لذا استمرت العلاقات موسومة بالحياد بين سكان المنطقة.

كان كل طرف منغلق على جماعته، ولا يحتك بالطرف الآخر إلا للضرورة. وحده الحب يشكل حالات خرق للقانون المتعارف عليه ضمنا، حين يقع شاب بدوي في هوى فلاحة، أو يقع فلاح في غرام بدوية، أو

يحب أحد القادمين الغرباء فتاة بدوية أو فلاحة؛ ولأن رأس المال سيد الموقف يكون على الشاب الفلاح الذي يحب بدوية أن يُودع هواه كي لا يخسر ميراثه من عائلته، وكذلك يكون على البنت الفلاحة أن تنسى الحب، لأنها ستكون منبوذة من عائلتها لو تزوجت بدويا. كانت قصة الحب الأشهر في المنطقة بين مروان البدوي وهالة سليلة إحدى العائلات الإقطاعية في البقاع. كانت هالة تسكن في الحي المجاور لحي البدو، قصة حبها لمروان بدأت برسالة ألقاها لها وهي تتمشى مع أختها، رسالة تلو رسالة ولقاء عابر يتلوه لقاء متعمد شبك الحب بين القلبين، ولأن مروان كان صادقا في هواه، فقد ذهب إلى قائد العشيرة جاسر الشمري، ليطلب منه التوسط في خطبة هالة. قصة الحب الملتهبة التي استمرت لثلاثة أعوام انتهت بزواج هالة من أحد أقاربها، كي تحول تماما دون تفكيرها بالفرار خطيفة مع مروان.

* * *

في "دير السرو"، لم تكن عائلة "باسم عبدالله" تنتمي لأي من التصنيفات الاجتماعية الموجودة هناك. فالأب مقاتل غائب، والأم قادمة من بيروت ترتدي فساتين أنيقة وتتكلم بطريقة مختلفة عن سكان البلدة، والأولاد يذهبون إلى المدرسة ولا يتشابهون في أي شيء مع الفلاحين أو البدو. كما أن التعليم ليس هاجسا أساسيا عند أي من سكان البلدة، بينما هو مفتاح الأيام القادمة بالنسبة لنجوى.

لم يكن للدولة سلطة على "دير السرو"، ليس فيها مدرسة، أو مستشفى، أو جامع ،ولا مرافق صحية رسمية.

يتدبر كل من يسكن هناك أموره بشكل ارتجالي لسرقة الكهرباء من أحد أعمدة النور، أما الماء يحصلون عليها عبر حفر بئر ارتوازي، وتظل مشكلة مياه الشرب الموجودة بالقرب من فيلا جورجيت، حيث تصطف البدويات، وهن تحملن غالونات الماء لملئها من حنفية الماء النقي في حديقة الفيلا.

انهارت الحياة المنظمة والمترفة التي اعتادتها الأسرة، وصار على كل منهم مهما صغر سنه المساهمة على طريقته في تحمل المسؤولية. لم يعد في استطاعة نجوى أن تترك أطفالها مع أمها، وتغادر برفقة بنات الجيران إلى السينما، أو لتتمشى في شارع الحمرا، فقد صار لزاما عليها أن تذهب برفقة حسان إلى البلدة المجاورة لشراء حاجيات البيت من لحوم وخضار ومؤن. تمشي على قدميها مسافة طويلة قبل أن تصل للشارع الرئيسي، وتظل واقفة برفقة ابنها أكثر من نصف الساعة – في برد الشتاء أو في حر الصيف– قبل أن تجد سيارة تاكسي. وفي طريق عودتها تواجه مزيدا من المعاناة، لأنها تكون مُحملة بمشتروات المنزل. صار عليها القيام بمثل هذه الجولة كل عدة أيام،رغم أن أمها سعاد تخفف عنها معظم الأعمال المنزلية والطبخ، ونجمة تعتني بالصغير حسن، إلا أن الحياة لم تكن رحيمة بنجوى أبدا، فقد بدلت واقعها من حال إلى حال. المرأة المرفهة في بيت "وادي أبو جميل"، صارت تحمل غالونات مياه الشرب من فيلا جورجيت إلى البيت، وتغسل حفاضات ابنها الرضيع وهي تجلس على الأرض وتنقع

الأقمطة في طشت كبير ثم تدعكها بيديها وتقوم بغليها على وابور الكاز.

* * *

كانت مدرسة "المأمون" التي تقع في بلدة مجاورة؛ المدرسة الوحيدة التي رضيت بتسجيل حسان وليلى بين طلابها بسبب تأخرهم أكثر من شهر عن بدء العام الدراسي، مدرسة خاصة باهظة التكاليف، دفعت نجوى لبيع كل ما تملكه من ذهب كي تسدد نفقات الدراسة، ثم اضطرت – لاحقا – في كل عام إلى الكتابة لأختها ملكة، كي تطلب منها العون المالي لنفقات تعليم أولادها.

ظلت سعاد الراعية لشؤون الأسرة، تستيقظ في الخامسة فجرا، رغم البرد والصقيع، تُشعل المدفأة، تجهز إفطارا بسيطا للطفلين قبل ذهابهما للمدرسة، ثم تُعد القهوة، تذهب إلى غرفة نجمة التي تستيقظ مثلها باكرا، تجلسان سويا قرب المدفأة، تثرثران لساعتين، وهما تسمعان الأخبار وأغنيات فيروز عبر الراديو الصغير. تظل نجوى نائمة مع الصغيرين ياسمين وحسن في سرير خشبي واسع، أحدهما عن يمينها والآخر عن يسارها، وحدها نجوى تنام على سرير، أما باقي أفراد الأسرة كانوا يضعون فرشات على الأرض، وينامون بجانب المدفأة.

استطاعت سعاد أن تقيم علاقات مع الجارات البدويات والفلاحات، وحصلت منذ وصولها على لقب "البيروتية"، بل إن كل أفراد العائلة لحقت بهم التسمية، فكانوا يقولون عن نجوى بنت البيروتية، وأولادها أولاد "البيروتية"، وتعلمت الجدة بمساعدة بعض الفلاحات زراعة الأرض الصغيرة

المجاورة للبيت، بالطماطم، والكوسا والفلفل الأخضر والنعناع والبقدونس. أما الجزء الأمامي المجاور للمنزل فقد زرعته بشتلات من الغاردينيا، والياسمين، والورد الأحمر، والعطرة، وملكة الليل التي تضوع رائحتها الخلابة حين يحل المساء.

نجمة عبر خفة روحها وجلسات قراءة الفنجان، والتبصير بورق اللعب، تمكنت من جذب النساء والرجال إلى ساحة بيت آل عبدالله، بينما سعاد تغض الطرف أحيانا عن مبالغات قريبتها في المزاح والدعابات، لأن كل ما يحدث في العلن وأمام مرأى الجميع. لكن الأمور لن تستمر على هذا الشكل، حيث سيكون لنجمة صفقات سرية مع شباب البدو في التقريب بينهم وبين الفلاحات، وبين الوافدين الجدد والبدويات. نبهت سعاد قريبتها بأنها تلعب بالنار عبر قيامها بدور "مرسال الغرام"، نجمة التي لم تبل بما سمعته هزت كتفها بلامبالاة قائلة: "الله بيحب الحب".

لم تظل عائلة باسم عبدالله العائلة المهجرة الوحيدة في الأرض المجاورة لبساتين التفاح وفيلا جورجيت، فقد انضم إليهم هاربون آخرون من جحيم الحرب بحيث أصبحت "دير السرو"، كما لو أنها مكان وجد على الأرض كي يلجأ إليه الفدائيون، والمنفيون، والفارون من بلدانهم؛ أيضا: لصوص الحرب، ومهربو مخدرات، ورغم كل هذا كان هناك اتفاق ضمني بين جميع الأطراف، المتجانسة وغير المتجانسة أن تظل الممارسات غير المشروعة بعيدا عن الجيران، هذا لم يكن نابعا من إحساس بالفضيلة، بقدر الرغبة في العيش بنوع من الأمان، وعدم كشف الحقائق.

حين جاء غياث الأسود السوري، وسكن في "دير السرو" عُرف أنه يعمل في السطو على بيوت بيروت والجبل، التي هجرها سكانها بسبب الحرب، يسرق منها كل ما يقدر على حمله، ويبيعه بأسعار قليلة؛ ولم يكن غياث يتردد في التعريف عن نفسه– عند الضرورة – بأنه: "مخابرات"، تلك الكلمة من منظوره كانت كافية لإرهاب أي شخص وتذكيره بما يمكن أن يحصل له لو تطاول قولا أو فعلا.

سمح المختار للقادمين الجدد– مقابل مبالغ مالية معقولة– بناء بيوت مرتجلة، جدرانها من حجر، وسقفها من صفيح. سكن إلى جوار عائلة عبدالله أبو خليل عدس وعائلته، وهو فدائي فلسطيني، لديه ثمانية أولاد، بنوا بيتا من ثلاث غرف وسكنوا فيه جميعا بعد هروبهم من مخيم صبرا. إلى جوار عائلة عدس، جاء لطيف خزندار وأخته لطيفة– التي تشبه ملامحها مريم العذراء في الصور المرسومة– لطيف كان في الثلاثين من عمره، أعزب، له بشرة بيضاء فارسية وأنف مستقيم وفم شهواني. بنى لطيف غرفتين مع مطبخ صغير جدا وحمام من دون باب وضعت لطيفة ستارة ملونة تفصله عن المطبخ. كان بيت لطيف المكان الأكثر جاذبية بالنسبة لحسان وليلى، بسبب قربه من بيتهم ووجود تليفزيون صغير بالأسود والأبيض، يعمل على بطارية سيارة، لأن الكهرباء مقطوعة في معظم الأوقات. يوجد في غرفة لطيف أيضا مكتبة اشتراها من غياث الأسود، وضع فيها كتبه التي تمكن من حملها معه من مكتبته في بيروت، ولم يعرف أن بضاعته ستكون كاسدة في "دير السرو".

تصادقت نجوى مع لطيفة خازندار التي حملت من اسمها الكثير من

اللطف والوداعة، ورأت أنها الأقرب إليها، فهي مثلها قادمة من بيروت، وفي مثل عمرها أو تصغرها بعدة أعوام؛ لطيفة أحبت أولاد جارتها، كانت تحكي لهم القصص وتعطي لحسان وليلى، كلما أتوا لزيارتها حبات ملبس محشو باللوز، أو قطعا صغيرة من الشوكولا. عرفت نجوى أن لطيفة مصابة بداء في قلبها، لذا لم تتزوج لأن الإنجاب يهدد حياتها، وكلما تقدم لها عريس وصارحته بحالتها الصحية يمضي بلا عودة.

يحكي لطيف لأبي خليل عدس عن خروجه من بيروت حين اشتعل المبنى الذي يسكن فيه في الضاحية الجنوبية، وكيف بات ثلاث ليال في الملجأ قبل أن يقرر الهروب، وضع في سيارة نصف شحن صغيرة ما تمكن من حمله من أغراض ضرورية له ولأخته، وحمل ثروته من الكتب المهمة في سيارته. في اليوم التالي وجد لطيف سيارة الشحن متفحمة بعد إصابتها بقذيفة، نجت سيارته "الفولكس فاكن" بأعجوبة، كان لطيف يكسب عيشه من بيع الكتب، والأدوات الدراسية، في متجر صغير بالقرب من بيته، لذا حين اشترى المكتبة المسروقة من غياث الأسود ووضع فيها الكتب التي أنقذها من الدمار، غمرته سعادة عجيبة وكأن حياة الكتب خففت من وقع كارثة الحرب عليه.

في المقابل كان أبو خليل عدس يقص على لطيف خروجه من فلسطين عام ١٩٤٨، حين كان عمره خمسة عشر عاما، وكيف كان جسده كله مدمى بشظايا القذائف، يكشف أبو خليل عن ساقه مظهرا آثار ندبة قديمة، يهز رأسه وهو يلعن الإسرائيليين والحكام العرب، مطلقا نبوءته بأن بيروت ستظل محتلة بعد خروج الفدائيين الفلسطينيين منها

وتصفية المقاومة اللبنانية. لطيف خازندار – اللبناني– الذي يُعرف عن نفسه بأنه قومي عربي، ويعتز بأصول عائلة "خازندار" التي تمتد جذورها إلى العراق وسوريا وتركيا ومصر، يرفض ما يقوله جاره، مشددا أن أهالي بيروت لن يسمحوا بوجود محتل على أرضها، يتكلم لطيف بانفعال وشعره الأسود المسترسل على رقبته يهتز مع حركة رأسه ويديه؛ بينما أخته لطيفة تضع صينية القهوة على علبة حليب نيدو استخدمتها بدلا من طاولة صغيرة. يتوقف الرجلان عن الحديث بالسياسة حين يمر غياث الأسود، ويعبر عن إعجابه برائحة القهوة ينضم إلى جلستهما أمام باب الدار، ويبدأ في سرد حكايات عن بطولاته في حرب بيروت، يحكي وهو يختلس النظرات إلى ساقي لطيفة البيضاوين، وهي تشعل نيران الحطب فوق التراب الجاف وتقشر أكواز الذرة لتجهزها للشواء.

* * *

عاشت نجمة مع عائلة "عبدالله"، حتى عودة باسم. انتهى حصار بيروت، وأُجبر رفاق القتال على المغادرة بحرا وبرا، لكن باسم لم يرجع. كانت تصلهم من رفاقه في الجبهة تطمينات تؤكد أنه حي يرزق، من دون أي توضيحات عن مكان وجوده، لكن فيما بعد تباعدت أخباره، ومرت شهور، لم يعرفوا عنه شيئا .

في أحد الأيام وجدوا رجلا نحيفا، بلحية طويلة غير مشذبة يجلس قرب الباب الخارجي، لم يكن هناك أحد في الداخل، سعاد ونجمة في زيارة لإحدى الجارات برفقة ياسمين وحسن، أما نجوى فقد أخذت حسان وليلى

إلى السوق ليساعداها في حمل الأغراض. حين وصلت نجوى إلى بيتها، وشاهدت رجلا ذكرتها هيئته بالمتسولين ، ما كان منها إلا أن قالت له ببرود، وهي تضع أحمالها على الأرض، مشيرة له بالابتعاد عن بيتها:

"الله يعطيك"؛ حينها علا منه صوت جهوري تعرفه جيدا، قائلا: "شو ما عرفتيني يا نجوى!". لم تعرف نجوى الملامح، لكنها عرفت الصوت، شهقت صارخة:

- باسم!!

بعد عودة باسم، لم يعد بإمكان نجمة أن تستمر في السكن معهم، لكنها بحيويتها المعهودة كانت قادرة على التأقلم مع كل الأحوال، لذا خلال أقل من شهر وبمساعدة شبان البدو الذين كانوا يعتبرونها سمسارة شؤون الحب والغرام شيدت نجمة غرفة ومطبخ وحمام على الأرض المجاورة لبيت باسم عبدالله. باعت آخر ما تملكه من أساور لتبني حيطان من حجر وسقف صفيحي، كي تنتقل إليه هي وابنتها جمانة؛ ثم زرعت حول بيتها معظم ما تحتاجه من مزروعات: كوسا وباذنجان وفلفل وبقدونس ونعناع وفجل وروكا. كان لديها قدرة فطرية على الفرح حتى في أحلك المواقف، تبعث المسرة في قلوب النساء حين تقرأ الفنجان وتُعد الوصفات التجميلية وتغني للملتاعات من الغرام أغنية سميرة توفيق مع غمزة عينيها :" الشاب الأسمر جنني.. يا عيوني.. سرقلي عقلي مني.. الله الله".

ورغم صغر مساحة غرفتها، فقد كانت تجمع النساء لتصنع لهن عقيدة السكر، وتساعدهن في نزع شعر الإبط والعانة، ثم تمسك زجاجة

فيها مزيجا من زيت اللوز وزيت الزيتون كي تمسح المنطقة المنزوع عنها الشعر، كما تضع في زجاجات شفافة ماء الورد المثقل بالنشا، وتدعي أنه يبيض الجلد، ولم تكن تتردد في الكشف عن عانتها البيضاء والممتلئة أمام النسوة والفتيات، لتؤكد لهن أنها تستخدمه يوميا للحفاظ على بشرتها، مع أن بياض نجمة الطبيعي لم يكن في حاجة إلى وصفات تجميلية.

كان تردد النسوة والفتيات على بيت نجمة يُسهل لها أن تقوم بدور مرسال الحب للجمع بين حبيبين، وإيصال الرسائل، وأماكن ومواعيد اللقاء، ومقابل هذا الدور تنال بعض العطايا من أموال وخضروات وفاكهة تساعدها على تأمين احتياجاتها هي وابنتها جمانة. تمكنت نجمة من إشعال فتيل الحب في قلب لطيفة خازندار نحو غياث الأسود، رغم سمعته السيئة، إلا أن نجمة كانت تستفيد من أمواله وعطاياه، مقابل تسهيل شؤون القلب مع لطيفة التي اشتهاها غياث من اللحظة الأولى التي وقعت عيناه عليها.

كما تمكنت نجمة من الوصل بين لطيف خازندار وريما البدوية، فقد هام بها، وهي بادلته الحب بوله أشد، كان يلتقي بها في غرفة نجمة، أو في ظلمة بستان التفاح في ساعات الليل الأولى، ولما شاعت قصة حبهما. تقدم لطيف لخطبتها، لكن والدها رفضه قائلا: "بأنه لا يُزوج ابنته للجليحي". لم يمر أسبوع على تجرؤ لطيف على التقدم للزواج من ريما، حتى تم إعلان خطبتها لابن عمها والزواج بعد أسبوع. تزوجت ريما في الموعد المحدد، لكنها طُلقت بعد شهر واحد، من دون أن يُعرف سبب لطلاقها. قيل إن ابن عمها أراد أن يكسر كبرياءها بسبب رفضها له مرارا وحبها للرجل الغريب، وقيل أيضا إن ريما أصيبت بحالة من الهستيريا بعد

زواجها، لكن في كل الأحوال فإن ريما لم تعد أبدا لحالتها الأولى وكأنها ذبلت وشاخت مرة واحدة. ظل لطيف على هواه لريما حتى بعد زواجها مرة أخرى من رجل بدوي متزوج ولديه ستة أطفال، وللمرة الثانية ستطلق ريما لأنها لم تتمكن من الإنجاب.أما لطيف الذي ظن هذه المرة أنها ستستقر في زواج أبدي، غادر "دير السرو" وحيدا بعد زواج أخته من غياث الأسود.

تطورت مهارات نجمة من قراءة الفنجان والورق، والتوفيق بين العشاق، إلى مرافقة النساء لرؤية الشيخ "الجنزوري" الذي ذاع صيته في بلدة "المنصورية". تتولى نجمة شراء طلباته الغريبة من سوق العطارين في الشام، حيث تذهب بنفسها لشراء أشياء تبعث على الرهبة مثل: جلد أفعى، وقدم ضفدع، وبول إبل، ومخ ضبع، وتزداد قائمة الطلبات تعقيدا مع استحالة الأمنية المرجو تحقيقها.

تعلمت نجمة بعض التعاويذ والتمائم من الشيخ الجنزوري، لتداوي بها البدويات، تعلمت منه أيضا كيف تتملص من أمر لا علاج له حين يقول لصاحبة القضية: "إن السحر مكتوب على جناح طائر حي، تم إطلاقه في الفضاء، وأن السحر سيستمر حتى موت الطير، أو موت من قام بالسحر.ربما طورت نجمة تلك الحيلة، فكانت تقول إن السحر معقود على ظهر سمكة تسبح في البحر، ولا بد من صيد السمكة وقراءة التعاويذ عليها حتى يبطل السحر.

لم تنل جمانة ابنة نجمة حظا من التعليم، فقد توقفت دراستها عند

المرحلة الابتدائية. البنت التي ورثت بياض أمها وزرقة عينيها لم تكن تشبهها في مرح الروح وخفة الحركة، بل كانت جمانة صامتة أغلب الوقت تراقب العالم بعينين واسعتين وروح متوثبة تتحين الفرصة للانفلات.

استعانت نجمة بابنتها في كثير من المواقف، نقلت البنت رسائل الحب وهي طفلة، وحين شبت قليلا ساعدت أمها في شراء أغراض السحر عند زيارات الشيخ الجنزوري. لم تهتم نجمة بذهاب ابنتها إلى المدرسة، ليس بسبب حاجتها لها فقط، بل لأن نجمة لم تكن تؤمن بأهمية التعليم، وتعتبر أن بقاء الفتاة في البيت للقيام بالأعمال المنزلية، وتعلم شؤون الطهو في انتظار قدوم عريس مناسب، أفضل من تسديد نفقات الدراسة من أجل مستقبل في علم الغيب.

تراقب جمانة بصمت حسان وأخته، وهما يمضيان في طريقهما لينتظرا باص المدرسة. لم تقم علاقة صداقة بين ليلى وجمانة، لأن الأخيرة نظرت بحسد إلى ليلى، وبرغبة نحو حسان؛ فقد وعت مبكرا تفتح أنوثتها وهي تنقل رسائل الحب بين العشاق، وتجالس النساء المتزوجات. لم تخبر جمانة أمها عن قبلات غياث الأسود على وجهها وصدرها حين ذهبت لتعطيه رسالة من لطيفة، يومها شدها غياث تحت السلالم في بيته، وفي العتمة قبلها برغبة، تحسس صدرها، وفرك حلمتها بشبق. كانت تلك المرة الأولى التي تجرأت يد على الامتداد إلى جسدها، لم تبح جمانة بسرها لأحد، فقد أحست بلذة الخطر، ومتعة القبلات المسروقة؛ ثم تعلمت كيف تكون هي المبادرة في نيل اللذة.

حكى باسم لنجوى عن صمود بيروت في وجه الحصار والقصف، والمعارك المشتعلة في الجزء الغربي من المدينة، أخبرها عن القتال خلف الدُشم، وأكياس الرمل، عن رفاقه الذين استشهدوا أمام عينيه. يتكلم كما لو أنه يتحدث إلى نفسه متسائلا: "لماذا تركزت المعركة في بيروت فقط، بينما العدو وصل عن طريق الجبل! كيف لم تحدث مواجهة هناك، قبل وصولهم للمدينة!" كان باسم يحكي ويحكي، ويكرر سرد ما حدث بتفاصيل أكثر في كل مرة. يرى في سقوط المدينة خيانة كبرى تعرض لها هو شخصيا؛ لكن من هم الخونة؟ وحين يصل ذهنه إلى فكرة الخيانة، يحس بالغضب وهو يتذكر وجوه من كانوا معه على الجبهة، ووجوه من ظلوا صامدين في المدينة حتى اللحظة الأخيرة. يتذكر باسم حديقة الصنايع، التي نصب فيها الناس خياما، وكيف سقطت قذيفة على مكان قريب جعلت اللحم البشري يلتصق بأغصان الأشجار.

أخرج باسم من جيبه ورقة بلون زهري فردها أمام عيني نجوى، راح يقرأ المنشور الذي ألقته الطائرات الإسرائيلية على بيروت، راحت نجوى تبكي بغزارة، بينما باسم يقرأ الجملة الأخيرة:

"وأنت الذي توجد في بيروت الغربية اليوم تذكر أن الوقت أخذ يتضاءل وكلما تأخرت ازدادت المخاطر على سلامتك وسلامة أعزائك. اعلم أن جيش الدفاع الإسرائيلي يؤكد أنه ليس معنيا بإصابة المدنيين الأبرياء، وبمن لا يشهر السلاح ضد قيادة جيش الدفاع الإسرائيلي".

أخبرها باسم بأن الناس لم يتأثروا بالمنشورات، مع أن جيش الدفاع كان قد احتل الجنوب، ووصل إلى صيدا، بل إن من ظلوا متواجدين في بيروت من جنسيات متعددة غير اللبنانيين والفلسطينيين، هناك مصريون وسودانيون، وتونسيون، وأردنيون، وسوريون، ويمنيون.

سالت دموع نجوى بغزارة حين عرفت أن بيتها في الفاكهاني دُمر تماما، رغم أنها لم تكن تتواجد كثيرا في ذاك البيت، لكن حين عرفت بسقوط البناية كلها تحت وابل من القصف استعادت شريط ذاكرتها بسرعة، تذكرت جارتها أم علي التي استشهد زوجها في الجنوب وفقدت ابنها في "حرب السنتين"، ورغم ذلك ظلت تستنجد بالإمام علي ليحرس من تبقى من أبنائها. أخبرها باسم كيف ماتت أم علي تحت الأنقاض، وكيف ظلت يدها ممدودة خارج النافذة التي كانت تطل برأسها منها، وتدعو العابرين لشرب فنجان من القهوة.

عرفت نجوى أن أخاها وهيب ظل في محله يرعى دجاجاته، ويعبر

بشجاعة عن طريق المتحف إلى بيروت الشرقية ليشتري الخضار والفاكهة، يدفع الرشوة عند حواجز الكتائب والإسرائيليين، ويخبرهم بأنه يعمل أجيرا عند أحد التجار؛ يرجوهم أن يتركوه يعبر بسلام، وحين يسمعوه يتهته في نطق كثير من الحروف يسخرون منه قبل أن يتركوه يمر، وصفه باسم بالبطل لأنه ظل يتبرع كل يوم بأربع دجاجات، وبالبيض والخبز للمحاصرين الذين لا يتمكنون من الحصول على طعام.

حكى لها باسم عن الهزيمة، وخروج المقاومة، ثم ذهابه إلى الجبل، وإصابته، وسقوطه في قلب الوادي، وأنه لولا عثور أحد الرعاة عليه بين أحراش شجر الصنوبر، لما كان حيا الآن. ذاك الراعي حمله إلى شيخ درزي أشرف على تطبيبه حتى تعافى، الشيخ موفق الذي عرف أنه فدائي من ثيابه العسكرية، اهتم به اهتماما كبيرا، كان بإمكانه أن يتركه لقدره، لكنه عالج الكسور في ضلوعه، وأخرج الشظايا التي اخترقت جسده، ورعاه لأكثر من ثلاثة أشهر.

لكن ما تعرض له باسم من مناورة موت وحياة، لم تمنعه من العودة من جديد إلى الثكنات، غادر الفدائيون لبنان لكن الحرب الأهلية مازالت مستمرة. هو مدمن على القتال؛ رؤيته للحياة لم تتغير، رغم ما تعانيه عائلته في بيت شبه متهالك، تلفحه الشمس طوال نهارات الصيف، ويتسرب المطر عبر جدرانه شتاء. لم يفكر في العثور على أي حلول أخرى، ما الذي يستطيع رجل مثله القيام به!هو لم يفعل أي شيء في حياته سوى القتال، مسؤوليته الكبرى تحرير هذه الأرض يقاتل كي يحصل على وطن وهوية!

لِمَ يطلبون منه القيام بمهام رجل عادي؟!

كان يعتبر أن حياتهم مستقرة، حسان وليلى يذهبان إلى المدرسة، والعائلة تنام في بيت له سقف، وهذا هو المهم. لم تنفع مشاجرات نجوى معه، لدفعه لتحمل مسؤولياته، فقد كان منشغلا بهمه الأكبر.

يعتبر باسم عبدالله نفسه لبنانيا، وفلسطينياً في آن واحد. هو ابن الجنوب، وهو فلسطيني أيضا، في قتاله من أجل قضية أعادت للبنان وجهه العربي المقاوم بعد أن كان منعزلا داخل طائفيته.

لكن باسم لم يكن يحمل هوية أي من البلدين. عاش في مخيمات اللجوء بعد أن هربت به أمه فاطمة من فلسطين، ودرس في مدارس " الأونروا"، وحين اشتد عوده انضم مثل كثير من الشباب الفلسطينيين واللبنانيين إلى المقاومة. كبر باسم في ظلال حكايات النكبة، وسمع قصصا عن المأساة تختلط فيها ذكريات فلسطين بطرقها الفرعية وأسماء شوارعها الرئيسية، وبيارات البرتقال في يافا، وأحياء عكا العتيقة مع حكاية أمه ومأساتها الشخصية.

حكايات كثيرة تختلط في ذاكرته عن المجاهدين والبطولات، والخيانات أيضا، التي ضيعت الأرض. خيانات أكبر من خيالات الأفراد، وما يتبادلونه من حكايات؛ لذا بعد عام ١٩٦٧، صار لباسم رؤيته المستقلة لفلسطين عن الحكايات المسموعة، وتشكلت حقيقته كفدائي بعد النكسة الكبرى.

حمل سلاحه مع الثورة الفلسطينية، كما قاتل مع المقاومة اللبنانية،

لكنه ظل بلا هوية، بقي قيد الدرس في كل مراحل حياته، ولأنه مفروض عليه عدم الانتماء، ظل يتعامل مع سلاحه على أنه الحل الوحيد الذي سيحسم قضية هويته غير المحددة. كان يقول إنه يقاتل من أجل تحرير فلسطين، ومن أجل استعادة الأراضي المحتلة في لبنان، وفي كل مرة كان يعود مهزوماً من داخله، ومع كل حزب، كان الرفاق أو الأخوة يشككون في انتمائه. لم تنفع الإصابات في ساقه ويده وعينه اليسرى في أن تحسم قضية هويته، وتختم شرعية انتمائه لأي حزب أو وطن. حين قاتل مع الفلسطينيين، كان فلسطينياً أكثر منهم، ومع الشيوعيين هتف بشعارات ماركس ولينين، ومع القوميين العرب كان عروبياً حتى النخاع. ظل يبحث عن هويته الحقيقية، الهوية التي تقول إنه لا ينتمي إلى قيد الدرس.

لكن باسم لم يجد الانتماء لا في الأوطان، ولا في السلاح، ولا في المرأة التي أحبها، بعد أن يشرب عدة كؤوس من الويسكي، يشكو زوجته لرفيقه خير قائلا: "تزوجت خشبة مش مرا".

لم يكن صديقه خير الذي يصغره بعامين ولم يتزوج بعد مدركا تماما لما يشكو منه صديقه، ولا يعرف أن برود الزوجات، ولامبالاتهن يسبب كل هذا الكدر.

فيما بعد سيغير باسم عبدالله وجهة نظره ببرود زوجته ويراه فضيلة متأصلة، بعد أن يشرح له العميد المسألة بوضوح، فقد تسرب خبر تكدر باسم الملحوظ إلى قائده. استدعاه العميد، وأوضح له بعد مقدمات طويلة– أسهب فيها بالحديث عن تجاربه في الحياة، وعن علاقته بالنساء–

أن رحمة القدر أرسلت له هذه الزوجة، لأن النساء الساخنات العاطفيات لا يمكن أن تأتمنهن على حياة عائلية نظيفة. زين له العميد فضيلة برود نجوى بأنه سيغيب بقدر ما يغيب، ويعود من دون أن يساوره الشك حول سلوكها، لأن التوهج الأنثوي ليس أهم مزاياها. هز باسم رأسه، وهو يتذكر شعر زوجته الأحمر الذي فتنه، ذاك الشعر الثائر على كل القيود، تذكر جسدها الطويل، وامتلاء ردفيها وصدرها، كل هذا الجمال الذي يشبه جمال الدمى، يخبئ تحته امرأة بأحاسيس دمية أيضا.

كره باسم النساء الجميلات، وحده كان يلتفت حين يشاهد امرأة أقرب إلى البشاعة، بجسد مكتنز وقصير، تهز أردافها بثقة، ويفر من عينيها نداء الرغبة. خرج على رفاقه بنظرية حول النساء القبيحات بأنهن الأكثر إمتاعا في السرير. جميع النساء اللواتي سيعرفهن بعد نجوى سوف يكن من هذه النوعية، وحين ستكتشف نجوى خياناته سيطير عقلها، لأن من فضلها عليها بشعة وقذرة، ولن ترضى بها خادمة عندها، لكن باسم إثر كل مواجهة مع نجوى كان يغيب أكثر. في بعض الليالي كان يلح عليه نداء الحياة الأسرية، يشتاق لابنه حسان الذي يشبه أمه كثيرا، يذهب للمبيت في أحضان نجوى إلا أنه عند الصباح يغادر، ويختفي لأسابيع.

لكن حين عاد إلى "دير السرو"، لم يعد من السهل عليه الفرار، كما في السابق. في بعض الأحيان اندمج باسم مع الحياة العائلية، كان يأخذ ابنه حسن الذي بلغ الرابعة من عمره في نزهات إلى الحقول والبساتين المجاورة، يبدو أن باسم أحب ابنه الأصغر أكثر من باقي أولاده، فلم يكن تواصله مع حسان أو ليلى يسيرا، يُعطيهما الأوامر، كما لو أنه القائد وهم

الجنود؛ نادرا ما كان يمازحهما، ربما حصل هذا مرات قليلة حين يكون في مزاج جيد، فيشارك نجوى في طهو ضلع من لحم الضان، أو في شواء سمكة كبيرة بعد تنظيفها وحشوها بالبصل والأعشاب.

لكن هذه الأوقات العائلية الحميمة والقليلة في حياة باسم، تبدو بالنسبة له تافهة أمام نداء المعركة الذي كان يدفعه للمغادرة في أي وقت، من أجل المشاركة في الحرب الأهلية، أو لفك سلسلة ألغام تم اكتشافها عند أطراف بيروت، أو للقيام بعملية شبه انتحارية في الجنوب المحتل.

كانت أزمة نجوى مع فكرة الوطن أقل تعقيدا من زوجها، فهي لم تعرف إلا بيروت، والدها عواد الكردي ولد وعاش في لبنان، ورغم حديثه عن كردستان، إلا أن انتماءه كان للبنان بكل أراضيه، نجوى مشكلتها في هوية "قيد الدرس" التي حملتها لأنها كردية، لكنها لم تحلم بأي وطن آخر؛ صحيح أنها كانت تتمنى أن تتحقق أحلام زوجها في استعادة فلسطين وتحرير جنوب لبنان، لكن في أعماقها كانت تستشعر أن ما يحلم به باسم يرتبط بفكرة الانتصار من أجل فكرة مجردة، أكثر من حنين العودة إلى مكان معين، وفي أعماقها تحس أن فلسطين صارت حلما بعيدا، كما هي كردستان.

القبو السري



حسان عبدالله

في البداية، عندما سكنا قرب الجسر في "دير السرو" كان أولاد جيراننا البدو يضربونني، وكنت أخجل من ذلك، أخجل لأنني لا أستطيع الدفاع عن نفسي، ولا عن إخوتي الأصغر مني. لا يقتربون مني حين تكون ليلى معي، لكن إن حدث وذهبت وحدي إلى الجسر، يتجمعون حولي لأي سبب، وبأي حجة يتركون صفعاتهم على جسدي، يختبرون قدرتي على مواجهتهم. كان فيهم قوة فطرية وشراسة لا أملكها، رغم أنهم من ذات عمري. يقولون عني بلهجتهم البدوية:

" الولد الجليحي"، أي الولد الغريب.

يتحدث أولاد البدو بعض الكلمات التي لا نفهمها، ثم لزمنا وقت حتى اعتادوا وجودنا وما عادوا يضربونني، وصرنا نفهم لهجتهم وكلماتهم السرية، وأسباب نفورهم من الغرباء.

في المرة الأولى سمعت أحدهم يهمس للآخر عندما اقتربت منهم ليلى للدفاع عني قائلا:

"جعف يا ول الجليحية جت".

وكان يعني: "اهرب يا هذا، فقد جاءت الفتاة الغريبة".

منذ طفولتنا تدافع ليلى عني، رغم أنها تصغرني بعامين، لكنها أطول مني وأكثر امتلاء، وكنت الطفل الأشقر النحيل.

في المرة الثانية أو الثالثة التي وقعت بقبضتهم كانت ليلى بعيدة تماما، أنقذني مرور لطيف خازندار الذي شاهدهم وهم يقذفونني أرضا، ويتحلقون حولي لضربي مقهقهين بأني "ابن مدارس". أبعدهم لطيف عني وهددهم بالضرب لو عاودوا التحرش بي، ثم أعطاني منديلا مطرزا مسحت فيه وجهي وآثار الدماء التي سالت من جبيني؛ من يومها تصادقت مع لطيف، وكأن تلك الصفعات صارت سرا بيني وبينه. ولم تكن هذه المرة الوحيدة التي يساعدني فيها، فقد احتجته في مواقف كثيرة أخرى؛ أهمها حين ذهب إلى المدرسة متقمصا شخصية عمي، لأن المدير كان على وشك طردنا أنا وليلى بسبب تأخرنا في تسديد المصروفات، يومها تمكن لطيف من إقناع المدير بترحيل المبلغ المتبقي للعام القادم، تحدث معه بهدوء وسلاسة مؤكدا تفوقنا الدراسي، وأن وجودنا في مدرسته وحصولنا أعلى

الدرجات على مستوى مدارس "البقاع"، يمنحنا بعض التسهيلات مقابل الأولاد الأثرياء والكسالى، هز المدير رأسه وبدا مقتنعا بكلام لطيف، على وعد بأن نسدد ما تبقى من المال في أقرب وقت.

تمنيت لو كان لطيف خزندار أبي، لأني لم أجد أبي في أي موقف مشابه ساندني فيه لطيف؛ سواء في المدرسة، أو في الحكايات التي كان يسردها على مسمعي وأبيات الشعر التي تعلمتها منه، والكتب التي ألح علي لأقرأها. لم أجد أبي في اللحظات الأولى لاكتشافي عالم الرجال؛ بل إنني لم أجده أبدا.

كي أتخلص من خوفي من صبيان البدو الأشرار قررت أن أربي كلبا؛ وأعتني به كي يحميني، يساعدني على التخلص منهم حين يهجمون علي، هكذا يفعل الكلاب مع أبطال الحكايات والأفلام، يهجمون على من يحاول أذية صاحبهم. ولم أنجح في الحصول على كلب وديع، يكون أليفا معي وشرسا مع أعدائي، كل الكلاب التي أحضرتها من الشارع إلى بيتنا مضت إلى البراري، صحيح أنها تظهر بين حين وآخر، لكني لم أتمكن من استبقاء أي منها. ليلى أرادت جلب قطة إلى البيت لتساعدنا في القضاء على الفئران، أحضرت قطة صغيرة أقامت في بيتنا أسبوعين أو أكثر ولما كانت تخدشنا جميعا، وتتبرز على الأرض لم تلبث أمي- رغم بكاء ليلى- أن قررت التخلي عنها؛ أرسلتها إلى بعلبك التي تبعد عن بيتنا ما يقارب ثلاثين كيلو مترا، بعد أن فشلت محاولاتنا للتخلص منها عبر إلقائها في مكان قريب، إذ تعود إلينا في كل مرة، وحتى حين أرسلناها إلى بعلبك في "بيك أب" ربما، كنا نخشى من حضورها في أي وقت. هكذا فشلت أنا

وليلى في تربية أي نوع من الحيوانات الأليفة.

بعد إحدى المشاجرات العنيفة بيني وبين فاضل ابن رضية، الذي يكبرني بعامين، تحولنا إلى أصدقاء. قامت جدتي سعاد وأمه بعقد معاهدة صلح بيننا، من يومها صرنا أنا وفاضل البدوي ثنائيا لا نفترق. كان فاضل معجبا بي لأنني أذهب للمدرسة وأعرف حكايات لا يعرفها هو وأصحابه، فقد انتهت علاقة فاضل بالمدرسة عند الصف الثالث الابتدائي، لكنه ظل يستعير مني مجلات غراندايزر وسوبرمان، بالنسبة لفاضل القوة الجسدية هي جوهر وجوده الذي يحرص على التأكيد عليه، ورغم ضآلة قامته، إلا أن له روحا جسورة، وقلبا مقاتلا. كنت أستمتع حين أرى الدهشة في عينيه، وأنا أحكي له عن الأطباق الطائرة، وعن سكان الفضاء الذين سيحتلون الأرض في يوم ما. أحكي له عن الخيالات، وهو يأخذني في جولات للأماكن التي لا أعرفها في "دير السرو" نمشط المناطق المحيطة سيرا على الأقدام، نقطف التفاح والخوخ والمشمش من البساتين المجاورة، ثم نهرب مسرعين قبل أن يُكتشف أمرنا، وتنتهي جولاتنا غالبا بالجلوس عند الساحة الخارجية للدير، برفقة عليش وفؤاد ولدين من البدو يرافقان فاضل دائما للتأكيد على زعامته المبكرة.

كان بيت فاضل أقرب من بيتنا إلى الدير، بل إن سطح بيته يطل على القسم الخلفي منه، لذا أقسم لي فاضل أنه في إحدى الليالي حين كان نائما على السطح شاهد أشباحا تتحرك في أرض الدير، وتحمل صناديقا من الكرتون وتنزل بها عبر الدرج الحجري تحت الأرض، وأنه ينوي أن يتتبع طريق الأشباح ليشاهد عالمها السفلي، ولما كنت لا أقل عنه رغبة

لاكتشاف عالم الأشباح، فقد اتفقنا أن نلتقي ذات مساء ونتسلل إلى الدير، وحدنا، ونظل هناك لوقت متأخر حتى نرى إن كانت الأشباح ستظهر حقا. تمكنت من إقناع أمي بأنني سأبيت عند فاضل على السطح، ولما كان البيت قريبا، وليس هناك ما يدعو للقلق وافقت بسهولة.

في المساء، بعد أن دخلنا الدير، أشار فاضل نحو الجزء الخلفي، وقال لي إنه شاهد الأشباح تتحرك هناك. مشيت خلفه أتتبع رؤاه، وجدنا درجا حجريا يقود إلى أسفل، كان هناك عتمة ورائحة خوف ممزوجة بروث القطط والفئران تعبق في الجو. أشعل فاضل المصباح الصغير ونحن ننزل السلالم إلى أسفل. وجدنا على يميننا فتحة صغيرة أشبه بفوهة يمكن الاندفاع عبرها إلى الداخل، ترددت قليلا، لكن فاضل كان أكثر شجاعة مني تابع طريقه وهو يقول لي:

"هيا تعال"، ثم يرفع صوته قائلا: بتحد: "أيتها الأشباح.. أين أنت..دراكولا أنت هنا؟".

بعد أن مشينا في الدهليز الطويل تحت الأرض، وجدنا مكانا شاسعا أشبه بقبو بجواره قبو آخر بدا لنا فارغا تماما، استرعى انتباهنا أن القبو الأول لم يكن فارغا، كانت هناك حبال على الأرض، حبال مستخدمة وأخرى جديدة، وصناديق كرتونية فارغة وسكينة ومصباح. كنا أنا وفاضل نمسك بأيدي بعضنا حين سمعنا أصواتا قادمة عبر الدهليز الطويل، سارعنا لإطفاء المصباح والاختباء في القبو الفارغ، أحسست برعشة يد فاضل، وهي تقبض على يدي، وبرعشة يدي اليسرى وأنا ألتصق بكتفه. كان

هناك ثلاثة أشباح آدمية أشعلت مصابيح صغيرة وصارت تتحرك، وتنقل بضاعتها لتخبئها في القبو. لا ندري كم من الوقت مضى علينا في مخبئنا ذاك، حابسين أنفاسنا من الرعب، حتى غادروا مبتعدين بعد أن أنهوا مهمتهم. قال لي فاضل إن من كان هنا هو جاسر الشمري ورجاله، وأنه لم ير وجهه، لكنه سمع أحد الرجال يناديه بكلمة "شيخ"، ولم يكن هناك أحد يحمل لقب شيخ إلا جاسر.

اقترب فاضل من الكراتين المغلقة، فتح أحدها بضربة من السكينة الملقاة على الأرض، تناثر مسحوق أبيض، لم نعرف ما هو، قال فاضل إنه ربما يكون سكر أو طحينا، وضعه على طرف لسانه، وهو يقول لي إنه مر، ثم اندفع في ضحك هستيري حتى سقط على الأرض. كان فاضل منتشيا بأنه اكتشف سر جاسر الشمري، وأين يخبئ بضاعته. غادرنا المكان بعد أن تعاهدنا على ألا نكشف هذا السر أمام أحد.

أخذتني المدرسة وانشغالي بدروسي من جولاتي مع فاضل. لم يتكرر ذهابي إلى الدير معه، إلا أنه أخبرني أنه قصد المكان مع رفيقيه، لكنه منعهم من مرافقته إلى الداخل، كي يظهر لهم مدى جسارته في اقتحام ظلمة الدير ولقاء الأشباح.

بعد عدة أشهر اختفى فاضل ليومين متتاليين. لم يعرف أحد مكان وجوده. أمه رضية جالت المنطقة كلها والمناطق المجاورة بحثا عنه إلا أنها لم تجد له أثرا. كنت أفكر بالدير، وما إذا كان فاضل تسلل وحده إلى هناك، وإن كان شبح دراكولا ظهر له حقا وامتص دماءه. لم أكشف لأحد عما

أفكر به، إلا بعد ثلاثة أيام من استمرار اختفائه، حين حكيت لجدتي عن حقيقة شكوكي. دخلت رضية برفقتي وبرفقة جدتي سعاد وعليش وفؤاد اللذين واصلا البحث معها طوال الوقت. بعد أن نزلنا ثلاث خطوات إلى أسفل وجدنا فاضل ممددا على الأرض، في يده كيس من النايلون فيه المسحوق الأبيض الذي شاهدناه من قبل.

مات فاضل بسبب رغبه الاكتشاف. مات لأن التجربة قتلته، ولم أجرؤ على الكشف بأن هذه البضاعة خبأها جاسر الشمري ورجاله في البهو السري للدير.

هز موت فاضل حياة رضية، كانت تطوف حول الدير ترميه بالحجارة، مبررة بأنها تضرب الروح الشريرة التي خطفت ابنها، فيما بعد صارت رضية تجلس لساعات على أرض الدير تقرأ القرآن كي تطرد تلك الروح الشريرة، وحين يهدها التعب تغفو على الأرض، ولما رفضت أن تبرح مكانها، كانت بناتها يحضرن لها الطعام إلى هناك، بل وصل الأمر بأن أحضرن لها فراشا وضعنه على الأرض كي تنام عليه. كانت رضية مصرة على رؤية وجه الشبح الذي خطف ابنها، ليلة تلو أخرى لم تر أي شبح هناك، لكنها شاهدت رجالا ملثمين ينقلون بضاعتهم التي خبأوها تحت الأرض. حكت هذه الحكاية للجميع، لكن لم يصدقها أحد، فقد كنتُ وحدي الذي أعرف الحقيقة.

عدت إلى انطوائي بعد موت فاضل، صارت أمي أكثر خوفا علي، تمنعني من مرافقة أحد، تراقبني حين أخرج من البيت؛ فقد أُصبت بالحمى

مدة أسبوعين عقب رؤيتي له ميتا على أرض السلم الحجري، موت فاضل علمني أن وجهي الحياة حاضران معنا في كل وقت، وأنه في لحظة ما ينتصر الشر على الخير، وفي أخرى ينتصر الخير على الشر. كان من الممكن أن أكون مكانه، أن أموت بهذه الطريقة؛ لكنني حي وأعرف أن شبح دراكولا بريء من موت صديقي.

في ذلك الشتاء كنت ألتهم الكتب المدرسية كي أبرهن على تفوقي، وأستعير من مكتبة المدرسة القصص والروايات، حتى أن أمين المكتبة صار يسمح لي بأخذ أكثر من كتاب معي إلى البيت. بهرني كتاب "رحلات جاليفر"، وظللت لوقت طويل أؤمن بأن هناك أرضا للعمالقة، وأنني في يوم ما سأفتح أحد الكتب فأجد فتاة صغيرة بحجم الأصبع تغفو بين دفتي الكتاب وتغطي جسدها بصفحاته، كنت أتخيل حواراتي مع تلك الفتاة، ماذا لو ظهرت لي حقا! ماذا سأقول لها، وأين سأخفيها عن الأعين الفضولية التي سترغب بانتزاعها مني! أحكي لليلى عن تخيلاتي، تضحك بدهشة، وفي أحيان أخرى تنظر لي تلك النظرة التي تكشف أنها تخاف علي من الجنون.

ربما من وجهة نظر أختي كانت أكثر المواقف جنونا حين صارحتها عن ذهابي برفقة نجمة إلى الشيخ "الجنزوري"، لأنه طلب منها أن تساعده في إحضار غلام من برج "القوس"، كي يتمكن من فتح المندل لإحدى السيدات. وعدتني نجمة أن تعطيني بعض المال مقابل صمتي عن كل ما سأراه. وفي بيت الشيخ الجنزوري طلب مني القيام بأداء إشارات معينة خلال محاولته فتح المندل أمام المرأة التي تقصده للعلاج. أحضر طبقا من

الماء، ثم أشعل البخور وبدأ في قراءة التعاويذ. طلب مني أن أحدق في الماء، وأن أبلغه عما أرى، لكنني لم أتمالك نفسي من الضحك، سقطت على ظهري من شدة الضحك، وصار الشيخ يبرطم كلمات غير مفهومة، ثم قال للمرأة الجالسة قبالته إن الجن تلبسني، طلب منها المغادرة إذ عليه معالجتي فورا، وما إن غادرت الغرفة، حتى أمسكني الجنزوري من ياقة قميصي وهو يدفعني نحو الأرض مهددا "حجننك يا ولد.. حبعتلك الجن الأزرق بالليل". ظللت لليال طويلة أخاف العتمة وأتسلل للنوم في فراش أمي، أغطي رأسي وأنا أشاهد خيالات الجن الأزرق على الجدران، تنعكس في ضوء المصباح فتبدو عالية ومرعبة.

في تلك الأيام بدأتُ لعبة الألوان، تلك اللعبة التي ستستمر معي حتى الآن. ذات مرة فتحت أحد أدراج الكوميدينو الموجود في الصالون، كان هذا الدرج مخصصا لأبي استولى عليه حين عاد إلينا أول مرة بعد قدومنا إلى "دير السرو"، وضع فيه أوراقه المهمة، وبعض حاجياته. وجدت علبة من الألوان الزيتية ورسومات رسمها أبي بنفسه، معظمها لنساء لا تنكشف ملامح وجوههن، لكن تفاصيل أجسادهن حاضرة بوضوح، بعض اللوحات مرسومة بقلم رصاص، وأخرى بألوان زيتية، لا أعرف أي شيطان كان يسكن فيه حين رسمها، ومن أين أتت له تلك الموهبة التي سأرثها عنه!

يوم اكتشفت علبة الألوان، كان أول ما فعلته أن تذوقت اللون الأحمر، ومرغت أصبع السبابة باللون الأصفر، ورسمت على حائط بيتنا. لم يكن هناك ريشة تساعدني على مزج الألوان ولا أوراق بيضاء خاصة

بالرسم، لكن علبة الألوان الصغيرة صارت اكتشافي الممتع.

وحده لطيف خازندار شجعني على الرسم.أمي أعجبتها رسوماتي، لكنها لم تنظر إليها على أنها شيء مهم، أبي حين عرف – فيما بعد– أنني أرسم، نظر إلى لوحاتي بإعجاب خفيف،لم يلبث أن تلاشى مع نظرته الساخرة وهو يرمي الأوراق بعيدا. أما لطيف، فكان يشجعني قائلا بالإنجليزية: "عظيم"؛ ويطلب مني أن أرسمه،أو أرسم أخته. لطيف كان يقول لي عبارته التي حفظتها من كثر تكرارها على مسمعي:"لا تتوقف عن القراءة والرسم، إنها وسيلتك للنجاة"، ربما لم أفهم حينها ما يعنيه، لكن مع مرور السنوات يتضح غموض المعاني.

أنقذتني لعبة الألوان من ألعاب مملة، كنت ألعبها أنا وليلى في ساعات الشتاء الطويلة. كنا نلعب الورق والشطرنج، لكن أختي أحبت لعبة "المونوبولي"، تلك اللعبة كانت مثيرة جدا بالنسبة لي لذا كنت أمارسها بمهارة، ليلى رغم حبها للعبة، كانت أقل حنكة مني، لذا تغتاظ كلما تغلبت عليها، تقول إن الأمر كله قائم على الحظ، وأن المونوبولي لا تعتمد على ذكاء اللاعب، أو مهارته بل على حركة الزهر، وحركة الزهر ليست إلا فعل حظ، لذا المونوبولي كلها لعبة حظ لا أكثر.

بعد سنوات كثيرة، حينما صرت أطلب منها أن نلعب مونوبولي الحظ كانت ترفض تماما، ربما منذ اختلف قدرها وسار عكس الاتجاه الذي كانت تحلم به، وربما أيضا بعد أن صارت أقدار أفراد عائلتنا كلها مختلفة عما توقعه كلُ منا في سره.

مازلت أحتفظ من ذاك الزمن بالرقعة الكرتونية المهترئة التي ظلت معي من أيام سكننا في "دير السرو"، كما احتفظت ياسمين بملعقة جدتي الذهبية.

الآن، حين أشاهد سامي ابن أختي ليلى وهو يلعب على الكمبيوتر أو الآيباد، وهو يتحاور عبر "الشات" مع أصدقاء وصديقات في بلدان بعيدة، أفكر كيف اختلفت الحياة بسرعة لاهثة إلى هذا الحد. وكيف أن علاقتي مع الحياة ربما كانت مباشرة أكثر، أذكر أني ذهبت إلى صالة القمار حين كنت أكبره بعام أو أكثر قليلا. كان هذا أول انحراف صغير لي؛ الذهاب إلى الصالة التي تقع بعد الجسر بكيلو متر واحد، غرفة كبيرة وواسعة، تزدحم بالرجال وبالأولاد الكبار من أمثالي، يلعبون القمار على طاولات متفرقة.

لم يكن أحد يعرفني من رواد المكان، نسيت نفسي، وبقيت ألعب لساعات طويلة. الغرفة معزولة في صخبها وصرخات زبائنها عن ضوء الشارع وضجيجه. لم أعرف أن المساء قد حل، وساعات غيابي عن البيت طالت؛ وما عرفت أن قلق نجوى علي دفعها لتمشيط المنطقة كلها برفقة أخي حسن. طافت أمي على كل بيوت الجيران الذين توقعت أن أكون برفقة أحد أبنائهم، لكنهم أكدوا جميعا عدم مشاهدتي هذا اليوم. جالت على دكاكين الجسر كلها، وكان المكان الوحيد الذي لم تقصده هو صالة الألعاب التي كان معروفا لكل سكان المنطقة أنها مكان موبوء لا يقصده إلا "الصيع" على حسب تعبير أمي.

التقت نجوى بجارنا محمود الفلسطيني ابن أبو خليل عدس، الذي أخبرها بأنه شاهدني عند الظهيرة أدخل إلى الغرفة الشيطانية، لكنها لم تصدقه إلا حين شاهدتني بعينيها هناك. في البداية انفتح الباب، ودلف أخي حسن إلى الغرفة الواسعة؛ ما استرعى دخوله انتباه أحد، ربما طاف بنظراته على الطاولات، ثم لمحني، وأنا أصرخ مع خصومي وأرمي الورق على الطاولة، اقترب مني وشدني من كم قميصي، حين التفتُ نحو الباب ولمحتُ أمي، ألقيت الورق من يدي، وقبل أن أتحرك للوقوف، كانت نجوى فوق رأسي تنهمر علي بالصفعات، وتجرني خارج المكان، ربما كنتُ أصغر الحاضرين، تبرع رجل كبير للتدخل تخفيفا من حدة الموقف، قائلا: "ما بيصير هيك يا مدام". رفعت أمي سبابتها في وجهه صارخة :

" أنت اخرس ". كان مشهدا مضحكا، لأن الرجل بدا قزما أمام قامة أمي الطويلة، لذا حين نهرته صمت وانسحب إلى طاولته. لم يتدخل أحد آخر، تركوا نجوى بشعرها الأحمر وقامتها الطويلة تعبر مثل عاصفة هوجاء، لتغادر وأنا في يدها مثل كتكوت صغير تمسكه من جناحيه.

لكن هذا لا يعني أن الانحرافات الصغيرة في حياتي لم تتكرر، بل صرت أكثر خبرة في تدبر أموري فلا تتمكن نجوى من الإمساك بي، والقيام بفضيحة كما حدث في صالة القمار.

كنت أذهب مع جارنا تامر العراقي إلى بعلبك، كان يدخن سجائر الحشيش في بيت "أبو الوليد" الذي يعرض علينا خمس فتيات، كي يختار كل واحد من تناسبه، كانت الكلمة التي يستخدمها تامر في كل مناسبة

وقد استوحاها من أحد الأفلام المصرية "حقطع عرق وأسيح دم"، يقولها لي بصوت منخفض للدلالة على فحولته وهو يتجه نحو غرفة المرأة التي وقع عليها اختياره.

ساعدتني خبرتي مع هويدا النورية –التي تأتي مع قبيلة النوَر للتخييم خلال أشهر الصيف قرب الجسر– في معرفة فنون الجسد. النساء الخمس اللواتي يعرضهن علينا أبو الوليد أكبرهن في الخامسة والثلاثين تقريبا نفرت منها، لأنها تكبرني بسنوات كثيرة، ولأن لها رائحة تشبه رائحة ربات البيوت. أصغرهن في مثل سني شعرت نحوها بالشفقة، أما الوسطى فقد ذكرتني بإحدى خالاتي من بنات خديجة، كان لها ذات الابتسامة الخليعة، وغمزة العين العبثية، لذا كان اختياري في كل مرة ينحصر ضمن فتاتين إحداهن في العشرين، وأخرى تكبرها بعامين أو أكثر، أما تامر فكان يحب مضاجعة الكبرى، يهز حاجبيه وهو يصفها بأنها "خبرة"، وينصحني بخوض التجربة معها.

في هذه المرحلة من عمري أيضا كانت جمانة ابنة نجمة تحاول إغوائي.

في البداية لم أكن أعرف ما الذي يمكنني فعله وهي تدعوني إلى بيتهم متذرعة بحاجتها لإصلاح شيء ما، وحين أصل أكتشف أنها وحدها.

كان بيت نجمة أصغر من بيتنا، لكنه أكثر عتمة حتى في وضح النهار. بيت مُركب من تفاصيل عجيبة، يشبه بيوت الأقزام والجنيات، يتكون من غرفة واسعة بسقف منخفض، ومطبخ صغير وحمام. الغرفة فيها أشياء متناقضة تماما، كنبة فاخرة مسروقة من أحد القصور اشترتها نجمة من

غياث الأسود، سجادة متهالكة تفرشها على الأرض صيفا وشتاء، لوحة بديعة معلقة على جدار من دون طلاء يبدو أنها سُرقت أيضا من أحد الفنانين خلال الحرب، وبيعت في سوق الحرامية ثم وصلت إلى يد نجمة التي حرصت أيضا على تزيين الغرفة بورود صناعية باهتة وضعتها في مزهرية مشروخة بجانب النافذة الواسعة المطلة على الحي. وفي زاوية الغرفة، يوجد فراش ممدود على الأرض تنام عليه نجمة وابنتها ليلا، وفي النهار يتم طيه ووضعه جانبا فوق طاولة خشبية صغيرة وتغطيته بمفرش ملون.

تبادر جمانة للالتصاق بي بجرأة، تضع شفتيها على شفتي، ثم تضحك بصوت عال، أذكر أن هذه الضحكة شاهدتها في فيلم عربي. لا يمكنني استيعاب وجه جمانة الجامد وصوتها المنخفض عادة أمام الناس؛ وتلك الضحكة العالية والنظرة اللعوب، أكاد أسألها: كيف تخبئ هذا في داخلها؟! لكنني ألتزم الصمت، وهي تقف قبالتي في زاوية المطبخ، تمنعني من الحركة. تفتح أزرار قميصها، وبنظرة مغوية، مع غمزة وابتسامة – تتجاوز سنواتها الخمسة عشر– تهز نهديها الصغيرين، وهي تقول لي "ما بدك".

ذات مرة كاد أن يُفتضح أمرنا حين دخل جاسر الشمري إلى غرفة نجمة، يبدو أن جمانة نسيت الباب مفتوحا، فدخل جاسر، وراح ينادي على نجمة، تقدم خطوات إلى الداخل، كانت جمانة الضئيلة النحيلة، تقف في مواجهتي واضعة يدها حول فمي، تمنعني من الكلام والتنفس، وكأن جاسر أيقن من خلو المكان، فغادر بعد لحظات. كرهتُ جاسر منذ حادثة

موت فاضل، واستغربت تردده على بيت نجمة، وحين سألت جمانة لم توضح طبيعة علاقته بأمها، بل قهقهت ضاحكة، وهي تقول: "جاسر.. راعي النسوان".

بين تسللي إلى خيمة هويدا النورية، وزيارات فتيات أبو الوليد، وتدخين سجائر الحشيش وغواية جمانة، كنت أحب نسرين زميلتي في الفصل الدراسي. كانت ابنة لأحد صغار الإقطاعيين في "دير السرو"، تسكن عائلتها على مقربة من بيتنا، يتعاملون معنا بنوع من التحفظ الأقرب إلى اللطف، لأننا نذهب للمدرسة، ولأن والدنا يرتدي الزي العسكري ويأتي إلى البيت مع سائق في سيارة جيب مما يجعله مهابا في أعين الجيران، ولأن أمي ذات سمعة حسنة بين الجارات، لكن هذه الصفات لم تجعل تلك العائلة تزيد من اللطف الذي خصتنا به عن غيرنا من العائلات المهجرة ويتم التعبير عنه بزيارات متباعدة في الأعياد الموسمية، والأفراح والأتراح. أحببت نسرين عبر النظرات، وحوارات قليلة في ساحة المدرسة ، ورسائل ورقية كنت أكتب لها فيها بعض الأشعار، وفي أحيان أخرى أقوم برسمها وضفيرة شعرها الأسود الطويل تتدلى على كتفها الأيمن. لم تكن نسرين الأجمل بين فتيات الفصل، لكن عينيها البنيتان تبتسمان لي دائما كلما كنت أقص حكاياتي، تتعمد السير مع رفيقاتها في المكان الذي أمشي به مع رفاقي، وتحرص على التودد إلى ليلى كي تتمكن من زيارتنا في الصيف خلال الإجازة المدرسية. في بلدة صغيرة مثل "دير السرو" تفوح رائحة الحب سريعا عبر المسافات، وتبدأ الهمسات تدور في الخفاء.

أمي كانت تخمن أني أحب جمانة، وهذا كان يرضيها لأنها لم تكن تعرف الوجه الآخر الذي أعرفه عنها، ذات مرة أرسلت أمي أخي حسن لينادي علي بعد أن تأخرت عند جمانة. شاهدنا حسن ونحن نتبادل القبل، ذهب، وقال لأمي: "كانوا بيبوسوا بعض". كذبت، وأنكرت تماما ما حدث، غير أنني لم أمتنع عن التسلل إلى غرفة نجمة كلما استدعتني جمانة، مؤكدة لي غياب أمها.

لكن الحياة لم تمض بهذه السلاسة؛ في إحدى الليالي ارتفع صوت نجمة، تطلب النجدة لإنقاذ ابنتها، الكهرباء مقطوعة في كل المنطقة، ونجمة تنادي على الجيران كي يحضروا سيارة لنقل جمانة إلى المستشفى، بعد أن وقع قنديل الكاز على رأسها، فأحرق شعرها ووجهها. المستشفى، الذي تم نقل جمانة إليه في "برالياس" لم تكن فيها تجهيزات كافية لإسعاف مثل هذا النوع من الحروق، لذا عادت جمانة إلى البيت بعد ثلاثة أيام بوجه ملفوف بالشاش الأبيض، ولما أذِن الطبيب بنزع الشاش، ظهر التشوه كيف دمر جزءا من وجهها الأبيض الجميل، صار لجمانة وجها ممسوخا، منقسما إلى جزءين: الأيمن جميل ومعافى من آثار الحريق، والأيسر مشوه بالكامل.

ازدادت جمانة عزلة وصمتا، تحبس نفسها في المطبخ طوال النهار وخلال وجود ضيوف عند أمها. أرادت نجمة استدرار العطف بمصيبة ابنتها، لكن جمانة لم تطاوعها، فكانت تصرخ في وجه أمها لو ألحت عليها بالدخول، أما حين تضطر لمغادرة البيت كانت تضع نقابا يخفي وجهها.

لم تعاود جمانة– بعد تلك المصيبة– تحرشاتها بي، تجاهلتني تماما، وحين دخلت ذات مرة إلى الغرفة وهي وحدها، هددتني بأنها ستصرخ وتفضحني، حاولت تهدئتها، لكنها قالت إنني أشفق عليها، وأنها تدرك جيدا أنني لم أحبها يوما، وأني أحب نسرين لأنها متعلمة مثلي.

بعد تلك الليلة هربت جمانة، لا أعرف إن كنت أنا السبب في هروبها. انتشرت شائعات كثيرة، قيل إن نجمة باعتها لثري عربي عرفته عن طريق الشيخ الجنزوري، أخذها معه مقابل أن يجري لها عملية تجميل تعيد إليها وجهها السابق.

قيل إن جمانة هربت وحدها، لأنها لم تعد تطيق نظرات أهل المنطقة، وقيل إن نجمة أعطتها لطبيب تجميل في بيروت كي يجري عليها تجاربه لقاء بعض المال. قيل الكثير، لكن ما حدث حقا ظل طي الكتمان، حتى ظهور جمانة بعد عدة أعوام من دون آثار للحريق على وجهها. لم تكشف عن سرها، كانت تضحك تلك الضحكة التي أعرفها جيدا وهي تقول: "ما مهم شو صار.. المهم رجعت حلوة متل زمان..مش هيك".

عالم خاص

"ليلى يا ليوله...

يا أم الجدولة

أم عيون الكحلى

والغميزة العسولة"

ظلت جدتي حتى كبرت تغني لي كلما وضعت رأسي في حضنها، أو رأتني حزينة أو شاردة.لا أذكر أغنيات أمي في الطفولة، ربما صارت تغني لي الآن وأنا أصبغ شعرها، أو حين أعد لها أقراص الكبة المحشوة باللحم والصنوبر.

لم أكن البنت التي تشبه أمها. ألهذا السبب أحسست أني بعيدة عنها؟ تقول: "ليلى ورثت لون شعر أبيها الأسود، وعينيه". بينما هي ذات شعر أحمر مجعد يصل طوله إلى خصرها، عيناها تميلان للأخضر، لكن في

لحظات الغضب يبدو لونهما أصفر حادا أو برتقاليا، بشرة وجهها شاحبة تعلوها حبيبات نمش، لها أنف طويل، وفم واسع بشفاه ممتلئة. كان شكلها مختلفاً عن سائر النساء في "دير السرو"، وهي تسير كنا نلمح قامتها الطويلة بشعرها الأحمر عبر مسافة بعيدة. جاراتنا البدويات كن ينظرن إلى أمي على أنها كائن غريب، يسألنها عن شعرها إذا كان مصبوغاً، فتضحك بسخرية وهي تُسمي لهن أنواعا مختلفة من الصباغ، بل وفي نوبة سخريتها منهن تنصح بدمج ثلاثة ألوان من الصباغ ليحصلن على هذا اللون الناري، لكن حين تعاركت مع إحدى النساء البدويات عايرتها بأنها مثل الجنيات، بشعرها الأحمر، وقامتها الطويلة.

تعيش أمي في أفكارها الخاصة، تهرب باستمرار من الواقع مفترضة أنه ليس الواقع الفعلي، وأن ما تحلم به سيأتي يوماً لا محالة. لكن الواقع الذي حلمت أمي به لم يأت أبداً، وكان ثمة وسائل تساعدها على الهرب مثل: قراءة الفنجان صباحاً برفقة الجارات، سماع برامج الراديو أو مشاهدة التمثيليات التي تحكي عن أشخاص يشبهونها في المعاناة الحياتية لكنهم تعثروا بالطالع الحسن، أيضا قراءة المجلات النسائية، الثرثرة مع أخواتها وقريباتها الذين يزورونا، كلما كانوا مسافرين إلى بيروت أو قادمين من سوريا. تأخذ أمي من عصارة ما سبق كله خلاصة أمنياتها، في محاولة للاستمرار ومقاومة حياتها البائسة، من دون أن تتمكن من القيام بأي خطوة نحو التغيير.

لم نكن فقراء فقط، كنا فقراء لا نحمل هوية، جيراننا البدو ينتمون للعشيرة، والفلاحين ينتمون للأرض، للمال، ولعلاقاتهم المتشابكة في

الزواج، النسب، المال؛وجيراننا الفلسطينين يحكون بفخر عن فلسطين وعن حقهم بالعودة إليها.

أما نحن فننتمي لقرية ضاعت هويتها بين لبنان وفلسطين.كنا نحلم بالرجوع إلى بيروت فقط، هذا هو حلمنا المشروع الذي لنا الحق به. في المدرسة قال عني أحد التلاميذ يوما كي يغيظني: "أنتم مش معروفين من وين...هجين..هجين"، بكيت وأنا أقول أني لبنانية وأن أبي يقاتل من أجل تحرير الجنوب وفلسطين المحتلة،كنت أفكر في "قدس" تلك القرية التي لا أعرفها وسمعت اسمها مرارا من أبي، هل أنتمي لها حقا، أبي أيضا لم يعرف قدس، كيف يرى أنه ينتمي لها!

أولاد جيراننا الفلسطينيين ولدوا بعيدا عن أرضهم – مثلي– لكنهم لا يشعرون بالاضطراب الذي أشعر به حين يتحدث أحد عن قريته، عن أرضه، عن وطنه. إن أكثر مكان أنتمي إليه هو بيت جدتي في "وادي أبو جميل"، هناك بيتي وشارعي ومدرستي الأولى، هنا أنا أنتمي لعائلة مهجرة، وأب مجهول المصير، وأم تتعاطى مع الحياة بنوع من اللامبالاة.

لقد تركت الحرب بصمتها علينا جميعا، صارت جزءا من تكويننا، منذ صيف عام ١٩٨٢، عرفنا صوت القنابل، ورائحة الدخان؛ لم أعد البنت الصغيرة التي ترتدي يوم العيد فستان أورغانزا اشترته لها جدتها، في انتظار وعد بالذهاب إلى مدينة الألعاب في "الروشة". كل شيء تغير، لكن هذا لم يكن مُدركا بوضوح بل تكشف يوما بعد يوم من الحياة في "دير السرو".

في الأفراح والأتراح، تواجه أمي بالنسوة اللواتي يرافقهن أزواجهن،

وبأسئلتهن عن أبي وسبب غيبته. الكآبة صارت جزءًا من ملامحها الأساسية، على الرغم من شعرها المائل للحمرة الذي يوحي لمن يشاهدها للمرة الأولى بحيوية فائضة.. كَرِهت أمي المناسبات الاجتماعية كلها لأن زوجها لا يكون معها، زوجها أي أبي، لكني أفضل مناداته "بزوجها"، لأني لا أحس نحوه بمشاعر حقيقية، أظن أنه هو أيضا يبادلنا ذات الأحاسيس، لأن وجودنا يزيد من إحساسه بالعبء، يعاملنا كلقطاء، مثل كائنات فُرض وجودها عليه فرضا. لا يُخفي انزعاجه منا، من طلباتنا، واحتياجاتنا المعيشية، بل لا يخفي حتى انزعاجه من انتهاء علبة الجبنة المطبوخة التي اشتراها منذ أسبوع.

لم نكن نتضايق نحن الأبناء أو نتأثر حين يختفي أبي في غيباته الصغرى أو الكبرى، كانت تزعجنا فقط أسئلة الجيران عن سبب غيابه، لأن حضوره الواقعي لا يشكل اختلافا جيدا إلا فيما ندر، حين ينظر الآخرون لنا كعائلة مكتملة، أو عندما يجلس أبي أمام ساحة الدار مع رجال الحي يتجادلون في السياسية، لكن خلال وجوده أيضا يتبادل مع أمي الصراخ وأحيانا شتائم تنتهي غالبا بمعارك طويلة تستمر أكثر من أسبوعين يقوم فيها كل طرف باستقطاب أحد الأبناء لينقل إليه تحركات الطرف الآخر، والويل كل الويل إذا حدث مثلا واكتشفت أمي أن أحدنا قام بالكشف عن أمر ما طلبت هي عدم الإفصاح عنه، تقوم حينها بالانقضاض علينا وفي يدها حذاء منزلي من الكاوتشوك يُستخدم عادة للحمام، وتبدأ بتسديد الصفعات عشوائيا، وغالبا ما تترك الصفعات آثارها على الجلد المضروب، بهذه الطريقة كانت أمي تنفث عن غضبها وحقدها الدفين على

أبي؛ الذي لم يكن أكثر رقة منها، بالإضافة إلى صراخه وشتائمه في وجه المغضوب عليهم منا كان لا يتورع عن مناداتنا بألفاظ قبيحة، خاصة حين يكون سكرانا أو مفلسا، أو في مزاج متعكر. حسان كان أكثرنا كرها له لأن أبي يناديه: "تعا يا ولد..روح يا ولد، قول لأمك تعمل قهوة يا ولد..ولع الفحم وجهز الأرغيلة يا ولد".

كانت كبرى المعارك بينهما حين قامت أمي في إحدى غضباتها بتمزيق كتب التاريخ والسياسة التي يحتفظ بها أبي، وقام هو بتكسير الصحون القليلة الموجودة في المطبخ، وكسر المرآة الوحيدة التي تحولت إلى شظايا،أما جدتي سعاد فكانت تلملم الخراب، وتحاول لجم ابنتها عن الصراخ، لكن بلا جدوى لأن بيتنا يتحول إلى ساحة للمعارك الداخلية كلما ازدادت صعوبات العيش. معارك تنتهي بمغادرة أبي البيت، وبانهيار أمي لساعات قبل أن تستعيد لامبالاتها من جديد.

لم تكن الحياة سيئة على الدوام في "دير السرو"، فالعيش وسط الطبيعة قرب النهر وبساتين التفاح والحقول المزروعة بسنابل القمح والخضروات أضفى على يومياتنا في أشهر الربيع والصيف نوعا من الجمال والبساطة. يعبق الهواء برائحة زهور الأقحوان الصفراء، شقائق النعمان، النرجس الفل، والورد الأحمر المزروع في حديقتنا الصغيرة. تعلمنا قطف الخبيزة والبقلة وعشبة قرص عنة – التي تنمو إلى جانب النهر– كي تصنع منها جدتي الفطائر المخبوزة بالفرن، وتشكلت لدينا مهارات ما كنا سنعرفها يوما لو كنا نعيش في المدينة، القسوة التي واجهناها منفردين جعلتنا نكتسب مرونة وصلابة لا تتحقق للأشخاص الذين عاشوا حياة

طبيعية. كنا قادرين على التجاوز، على العبور، والأهم الإيمان بالغد.

في الصيف كنا نأكل الفاكهة التي تنمو أشجارها بالقرب من بيتنا: خوخ ومشمش وتفاح وتين ودراقن وداليات عنب؛ جدتي سعاد تتفنن في إعداد مهلبية النشا بالمشمش، أو كومبوت الدراقن بالفانيليا، وحين يتبقى لديها مزيج من الفاكهة تقطعها إلى قطع صغيرة وتغليها مع السكر لتصنع مربى الفواكه. أكثر اللحظات مسرة بالنسبة لنا يوم كرنفال الآيس كريم، حين تصل إلى المنطقة سيارة فان جديدة مطلية باللونين الأبيض والوردي، عليها رسوم ورود وعصافير تخرج من فمها ألحانا، فتصدر من السيارة موسيقى كرنفالية تنبئ عن وصولها، نتجمع حولها كي نشتري آيس كريم لذيذ جدا بنكهة الشوكولا والفراولة والفانيليا، ثم نعيش لأيام على حلم عودة السيارة مرة أخرى، إذ لم يكن هناك مواعيد محددة لقدومها.

لكن في الشتاء، تتبدل الحياة تماما نسمع صوت المطر مضاعفا، أتخيل أنه سيعبر السقف ويهطل في غرفتنا، يستمر في الانهمار بغزارة.. المطر وأشباح الظلمة، أخبئ رأسي تحت الغطاء، وألمح في العتمة فئرانا صغيرة تعبر من شقوق السقف، تهرب من البرد إلى بيتنا، أتخيل أنها تعبر قرب رأسي وأنا نائمة على الأرض، لا تقترب مني ولا أنا أخيفها، كما لو أن هناك اتفاقا بيننا ألا يزعج أحدنا الآخر.

غالبا ما يتكون طعام الفطور في أيام الشتاء من ثلاث أو أربع بيضات مقلية وصحن لبنة، وفي حال توافر المكدوس أو المربى تتم الاستعانة بطبق صغير أيضا لأن ما تم تخزينه في الصيف يجب أن يكفي لأشهر الشتاء كلها،

إذ في كثير من الأحيان، ونتيجة لجهل أمي في صناعة المربيات، وتعاليها عن طلب التعلم كان "العفن" يصيب المربى والمكدوس الذي تصنعه، ورغم ذلك كان علينا أن نحيد طبقة العفن التي تعلو المرطبان، ونغرف من تحتها. تنجو "اللبنة" من العفن لأن أمي لا تخزنها وتكتفي بصناعتها كل ثلاثة أيام.

في أيام الدراسة، كنا نأكل ساندويتشات مرتجلة على عجل، ونذهب نحو الطريق الطويل المليء بالحفر والوحل وماء المطر؛ وتكمن براعتنا في عبور هذا الطريق من دون أن تتسرب المياه إلى أحذيتنا.

حين يصلنا بعض الدعم المالي من خالتي ملكة، تزدهر مائدة فطورنا بأنواع من الأطعمة، مثل الجبنة البيضاء، والزيتون، أو الجبنة المطبوخة والمصنوعة على شكل قوالب كبيرة، ونشتري خبز البريوش المحلى بخليط من السكر وجوز الهند والزبيب، نأكله بعد تغميسه بالقشدة الطازجة، ومربى الفراولة. نشتري الدجاج واللحوم، وتحضر أمي لكل منا أنواعا من الشوكولا والحلوى التي نحبها.

كانت أمي كريمة جدا معنا، تسرف في كرمها ودلالها لنا فيما يتعلق بكل أنواع المأكولات والمشروبات مهما كانت، لكنها في معظم الأوقات لم تكن تملك المال الكافي لتلبية رغباتنا جميعا؛ وحين تقدر على شراء ما يحلو لها تغمرها سعادة كبيرة، وتغمرنا أيضا لأيام حتى عودة الإفلاس مرة أخرى، وهكذا يدور دولاب الحياة في بيتنا، لكن هذا لا يعني أن الجوع لم يعرف طريقه إلى بيتنا مع غياب أبي المستمر، أو ظهوره وبقائه عاطلا عن العمل، أو مفلسا يحرض أمي على الاستدانة من أخوتها وأقاربها.

وبسبب الجوع؛ تعلم حسان صيد العصافير عبر استخدام شريط من المطاط موصول بقطعة من الجلد يضع في جوفها حجرا ثم يشد الجلد ويصوب الحجر نحو العصفور. كان يلجأ إلى هذه الطريقة لصيد الحمام أيضا، وفي بعض الأحيان كنت أساعده كي نحصل على غنائمنا من الطيور التي تشويها جدتي على الحطب، أو تطهوها مع بصل وبهارات لتصنع منها حساء لذيذا تستمر في غليه لساعات حتى يذوب لحم الحمام، ويكاد أن يتلاشى في مرق دسم كنا نحتسيه بنهم ونحن نقضم خبزا جافا.

تذهب أمي إلى بيروت كل أسبوع أو أسبوعين، أحيانا برفقة جدتي، وأحيانا وحدها أو برفقة أحد منا، تأخذ المال من خالي وهيب ثم تعود مساء، وفي حوزتها كيسين كبيرين، أحدهما فيه عدة دجاجات وفي الآخر بعض المشتروات القليلة والرخيصة من خضار ومعلبات تشتريها أمي من سوق "صبرا". في بعض الأحيان تُحضر أمي بعض الثياب التي تبرعت لنا بها خالتي لطفية، بعد أن تنازل عنها أولادها لسبب ما.

أمي تظن أنها الأفضل بين إخوتها البنات لكنها الأتعس حظا، إذ كيف لخالتي لطفية (السمراء،السمينة، ذات الشعر الخشن) ابنة خديجة الفلاحة، كما تصفها أمي أن تكون أحوالها أفضل، أو ألا يهجرها زوجها ويظل معها ومع أولادها. بينما أمي ذات العيون الملونة والبشرة الفاتحة والشعر الأحمر- بنت البيروتية- تعاني من الضنك وتستجدي المساعدة من إخوتها لتحصل على ما تسد به رمق أبنائها.

في الليلة التي تعود فيها أمي من بيروت، وبعد نوم أخوتي تعيد على

مسمعي تفاصيل يومها:

"والله يا ليلى هالدنيا حظوظ.. وصلت عند خالتك لطفية الضهر، وسألتني بحطلك تتغدى أو منستنى أبو عادل ليبجي يآكل معنا.. بس يعني هي الها خاطر إنه نستنى؛ طبعا قلتلها: "إيه منستنى كلها نص ساعة"، وحياتك خالتك قامت تحممت ولبست قميص نضيف وقعدت تدهن وشها كريم وتحط على جفونها ظل أخضر... يبي والله كان على راس لساني قول.. شو بتعمل الماشطة بالوجه العكر." .

أسأل أمي عن خالي وهيب تقول لي باختصار: "بيسلم عليكي".

أحزن كلما تذكرت خالي وهيب، ربما هو الوحيد، الذي تعتبره أمي أسوأ حظا منها بين إخوتها السبعة المنتشرين في لبنان. كان يصغر أمي بعامين، لم يتزوج، تفوح منه دائما رائحة الدجاج، أشمها كلما ضمني إلى صدره، أشمها أيضا حين يكون موجودا معي في ذات المكان، رائحة لا تنفع كل أنواع الصابون في إزالتها، إذ يكاد يعيش في دكانه برفقة الدجاجات المسكينات- كما يقول - يعمل طوال النهار، وحين يعود إلى منزله أو غرفته على الأصح يقوم بالاستحمام على عجل، يستمع لنشرة الأخبار وينام، وهكذا حتى اليوم الثاني. ظل خالي وهيب يسكن بيت الأسرة في "وادي أبو جميل" حتى دُمر البيت خلال الحرب، ولم يعد صالحا للعيش، ووجد خالي نفسه ينام في غرفة سقفها مفتوح من جراء قذيفة سقطت على الطابق العلوي، لذا تدبر أمره بالسكن في غرفة بسيطة قرب مكان عمله.

تتحدث أمي عن خالي وهيب، كما لو أنه أبله أو يفتق] للوعي

الكامل، رغم أنني لم أحس أبدا بذلك كان طيب القلب، نقيا وواضحا، لا يخفي ما معه من مال ولا يبخل على أحد بما يمكنه منحه.

تعلمتُ الطهو من جدتي سعاد، بل تعلمت منها أشياء كثيرة؛ كنت أرافقها طوال الوقت كما لو أنها أمي. تعلمت منها إشعال النار قرب البيت والطهو على الحطب عند الضرورة، إعداد مائدة طعام تكفي لستة أشخاص من مكونات تبدو للوهلة الأولى أنها لا تكفي لطبق واحد، أو طهو الأرز على البخار حين لا يوجد زيت أو سمنة.

أتخيل أن لديها يدين سحريتين، وينقصها المكنسة فقط لتطير. كانت قادرة على القيام بمعجزات صغيرة، تصنع ستارة بألوان زاهية، ولحاف من ثياب قديمة، أو مفرش مائدة من قطع قماش متفرقة، تنظف أرض البيت بمزيج من المياه والليمون والخل، وترش الماء قرب ساحة الدار وتسقي شتلات الورود والنباتات عند العصر، ترتجل هدايا من صنع يديها مرطبانات من المربى، وحلوى الجزر، ومخلل الليمون المتبل بالكزبرة والثوم؛ أو تنسج بالكروشية شالا صوفيا ملونا؛ وعلى النقيض من أمي لا تندب حظها ولا تلوم أحدا، بل إنها لا تتكلم كثيرا لأنها مشغولة طوال الوقت بشيء ما لتدبر الحياة. لن أنسى طبق الخبز المسلوق الذي كانت تعده لنا، في وقت الإفلاس الشديد، كانت تجمع كل يوم بقايا الخبز اليابس في كيس من القماش صنعته بنفسها، وحين ينفذ ما لدينا من طعام، تقوم بقلي بصلة ثم تزود قرابة لتر من الماء، وتضيف الخبز الناشف والأعشاب المتوفرة، وتتركه يغلي، ثم ترش النعناع اليابس على هذا الخليط. كان الخبز بالبصل والأعشاب لذيذا، ويكفي لسد رمق الأفواه الجائعة.

كنا أنا وحسان نرجو جدتي سرا ألا تترك أمي تطبخ، لأن الطعام الذي تطهوه نجوى سيئ للغاية، إما أن يكون قاسيا وغير مطبوخ جيدا أو جافا، ويبدو عليه التعجل وعدم الرغبة في صنعه، لكننا نضطر لأكله. نجتمع حول صينية الطعام الكبيرة على عدد صحنين أو ثلاثة صحون مملوءة إما بالبطاطا أو باللوبيا المطهوة مع طماطم غير مقشرة بحيث تبدو قشور الطماطم ملفوفة على نفسها باستفزاز. النوع الآخر من الطعام شبه الدائم – على مائدتنا – هو طبق البطاطا المقلية أو المسلوقة، أو المقطعة إلى مكعبات، والمطبوخة مع بصل مقلي بالزيت يضاف إليه ماء وملح وكمون، وإلى جانب هذا الطبق صحن سلطة عجيب يتكون من قطع كبيرة من الطماطم والبصل وبقدونس تكاد تكون أعواده مقطوعة إلى فرمتين أو ثلاث بحيث يبدو عود البقدونس كما لو أنه عشبة مقطوفة من أرضها وملقاة بإهمال في الطبق، لذا لم تكن سلطة شهية أبدا. أما المشروب الرئيسي الذي يعقب الوجبات الثلاث، فكان الشاي المحلى بكثير من السكر تقول عنه نجوى ساخرة: إنه "حلوى الفقراء". هكذا تنطق أمي حكمها وتعليقاتها الساخرة في أوقات غير مناسبة وبأسلوب يشعرني بالغيظ.

المواد الرئيسية التي تحرص نجوى على توافرها في البيت كانت: الخبز لأننا نحتاج إليه في كل وجبة، البيض، الزيت للطهو وللاستعانة به في أمور عدة حتى في مزجه مع الليمون لترطيب يديها مساء – البطاطا، لأن لها أوجها كثيرة في الاستخدام، وعشرات من التنويعات في الطبخ، العدس أيضا يحتل موقعه في الأهمية والتنويع؛لأنه يحضر مع حساء الخضروات

مرتين في الأسبوع شتاء، السكر والشاي، وهناك أيضا القهوة، التي تحتسي منها نجوى فنجانين يوميا عند الصباح، وتتعامل معها بتقتير شديد، إذ لا يمكن أن تكشف أمام الجارات وجود مسحوق البن لديها إلا إذا كانت تلك الجارة على جانب من الأهمية بالنسبة لها.

المشروبات الأخرى المتوافرة تتكون جميعها من الأعشاب التي تنمو حول البيت بشكل عشوائي، هناك النعناع الأخضر الذي يشرئب عنقه صيفا، ونقوم بقصه وتجفيفه بعد غسله وفرده على صينية كبيرة للاستخدام أيام الشتاء. أما خلطة الزهورات الطاردة للزكام والتي تعلمتها أمي من جاراتها البدويات، فتقوم على تجميع أوراق الورد الجافة مع شعيرات الذرة، ومع بعض أوراق شجرة الزيزفون، وقليل من البابونج، لأنه يقضي على البلغم في الصدر، كما تؤكد رضية.

في أيام العواصف الثلجية، كنا ننعزل عن العالم في "دير السرو"، التي يأتي ذكرها في الأخبار ضمن المناطق، التي حاصرها الثلج على الطريق الدولي بين بيروت ودمشق، نفرح أكثر إن تضافرت هذه العزلة مع وجود الكهرباء لثلاث أو أربع ساعات في اليوم، لأن قدوم العاصفة يرافقه انقطاع في الأسلاك الكهربائية لأيام، وفي حال توافر الكهرباء لساعات أو مشاركة الجيران في التجمع أمام شاشة بالأبيض والأسود تعمل على بطارية السيارة نشاهد المسلسلات المصرية أو المكسيكية المدبلجة إلى العربي.

كنا محاصرين ضمن قناتين أو ثلاث نحفظ برامجها عن ظهر قلب. في الليالي التي لا تكون الكهرباء مقطوعة يكون المسلسل المكسيكي سيد

السهرة؛ يستمر المسلسل المكسيكي أحيانا من موسم إلى موسم، يمر الشتاء وينتهي، ويأتي شتاء آخر، والأبطال مازالوا متفرقين، إلا أننا لا نتردد، لا في بيتنا ولا في بيوت الجيران عن الاستمرار في متابعته.

كان مسلسل "أنت أولا أحد" أول مسلسل مكسيكي مدبلج ظهر في لبنان في مطلع التسعينيات، وكان الجمهور اللبناني غير معتاد على تلك الحبكات المعقدة في الأحداث، ولا على عدد الحلقات الطويلة. لم يكن يضاهي المسلسل المكسيكي طولا في عدد الحلقات، وفي الحبكة الشائكة سوى مسلسل "بولد أند بيوتيفل" الأمريكي، فيما بعد تتالت المسلسلات المدبلجة، وزال بريقها الأول، وصار المشاهد يدرك مسبقا الفخ المنصوب له في مشاهدة حلقات لا تنتهي، لذا كان من الطبيعي تجاهل عشرات الحلقات، ثم المتابعة من جديد، من دون فقدان القدرة على استنتاج ما حصل في الحلقات المهملة.

خلال عزلة الثلج ننقطع عن الذهاب إلى المدرسة مع إحساس بمتعة غامرة، لأن الطبيعة ساندتنا للتدخل وكسر الروتين الدراسي. في نهار الثلج يخرج الجميع من بيوتهم، كل شيء مغطى بالبياض المطلق، الأرض، الشجر العاري، أسطح البيوت. يتبادل الجيران اللعب بالثلج عبر تحويل قطع الثلج إلى كرات يرمون بها بعضهم. أما الأولاد الأشرار فإنهم يصنعون كرة ثلجية مكونة من حجر صغير يتم تجميع الثلج حوله، ثم يقذفون به خصومهم، فيصيبهم الأذى. حدث هذا مع حسان أخي حين رماه أحد الأشقياء بكرة ثلجية ملغومة بالحجارة فأصابته في عينه وأعلى الجفن، وتسببت له بجرح ظلت آثاره فوق حاجبه الأيسر ندبة خفيفة لم يزلها تباعد الزمن.

تكره أمي هطول الثلج لأنه يسبب بردا قارسا لا يُحتمل، تصل درجة الحرارة إلى أربع أو خمس درجات تحت الصفر، مما يجبرها على الاستمرار في إشعال المدفأة، التي تستهلك الكثير من الوقود، لكن حرصا على حياة أختي ياسمين تُشعل أمي المدفأة طوال النهار، وشطرا كبيرا من الليل، ففي "دير السرو" يتم تخزين الوقود من مازوت وحطب لإشعال المدافئ طيلة أشهر المطر.

كانت بيوت جيراننا العرب والفلاحين كبيرة جدا، الصالون فيها يمتد على مساحة شاسعة، ويستخدم كغرفة رئيسية لاستقبال الضيوف ولتجمع الرجال، خاصة في الأماسي المثلجة. النساء والفتيات يجلسن في المطبخ، الذي يشغل مساحة واسعة أيضا، ويؤدي دوره كمطبخ وغرفة للجلوس. يتم استخدام مدفأة المطبخ في الطهو وفي صناعة القهوة والشاي وتسخين الماء لتدفئة جو الغرفة. أما بيتنا فكان، بالإضافة إلى صغره وسقفه الصفيحي ذي أثاث متواضع، لكن ما ظل يكسبنا الاحترام بين البدو والفلاحين، هو أننا قادمون من بيروت، ونذهب إلى المدرسة بهيئة جيدة، كما أن حديثنا المستمر عن اقتراب عودتنا إلى بيروت أضفى على وجودنا الغريب نوعا من التميز في أننا سنعود يوما إلى المدينة. كانت المدرسة من الأمور المستحيلة بالنسبة للبدو، يكتفون بتعلم الحساب، الذي يفيدهم في أمور التجارة. أما الفلاحون، فكانوا أيضا غير مكترثين بتعليم أولادهم إلا ضمن عائلات قليلة، تطمح أن يكون لها ابنا في الجيش أو الدرك، فتدفعه لنيل الشهادة الثانوية، ثم البحث عن واسطة تساعده في تحقيق مراد العائلة، وإن لم ينجح الأمر، فإنه سينضم إلى أعمال الأسرة سواء في

الزراعة أو التجارة.

* * *

ذات مرة، كنت أسير في الطريق الطويل، المزروع على الجانبين بأشجار التفاح والمشمش، في نهايته قصر يهجره سكانه أيام الشتاء. أُخمن أنهم يذهبون إلى بيروت هربا من صقيع "دير السرو". يقع القصر في الطريق إلى بيتنا، كنا نطالع جماله وشموخه يوميا خلال ذهابنا وعودتنا من المدرسة. في القصر بنت في مثل عمري، أكبر قليلا أو أصغر، تلعب مع صديقة لها في باحة القصر، أتمنى لو كنت مكان إحداهما، أظل أحدق في القصر خلال عبوري من أمامه، أتمنى حدوث معجزة بأن تناديني الفتاة التي في مثل سني لألعب معها، لكن هذا لا يحدث، وتستمر الفتاة في اللعب مع صديقتها، وأستمر أنا في سيري نحو بيتنا أو كوخنا ذي الحيطان الحجرية والسقف الصفيح.

بعد عبوري عشرات المرات من أمام القصر، وتبادل النظرات مع البنت التي تسكن فيه، لوحت لي من خلف الأسوار كي أقترب منها..

- شو اسمك؟

- ليلى..

أخبرتني أن اسمها سماء، وأنهم يأتون إلى هنا في أشهر الصيف، ويعودون إلى بيروت في الشتاء. حين دخلت القصر عرفت كم يختلف عالمها عن عالمي، وكأن القصر مأخوذ من مكان سحري ومنسي. بعيد عن "دير السرو"، عند مدخل القصر تمثالان من الرخام لعرائس البحر، وفي

الداخل صالة فسيحة جدا، غرف واسعة، ثريات معلقة في الأسقف، سجاجيد فاخرة على الأرض، قطع أثاث ذهبية لم أر مثلها إلا في التليفزيون والمجلات الملونة. غرفة سماء في الطابق العلوي، فيها سرير مغطى بمفرش مزين بحبات من اللؤلؤ والخرز الملون، سجادة من اللون العاجي ودولاب أزرق سماوي، ومكتبة مطلية بالأبيض الموشى بالأزرق تضع فيها سماء كتبها وأشياءها. كانت سماء في نفس عمري، ومرحلتي الدراسية، لكنها لا تعيش مثلي، هي لديها غرفة تُعلق على جدرانها صورا لفنانين أجانب تحبهم: مادونا، شير، مايكل جاكسون، سامنثا فوكس، وبروك شيلدز، هذه الأسماء التي تهتم بها أيضا الفتيات في مدرستي، أما أنا فأحببت بروك شيلدز الشقراء الجميلة ذات الطلة الفارعة والضحكة الجذابة.

كنت أتكلم مع سماء وأشير بإصبعي إلى صورة بروك، حين دخلت والدتها وبدأت بسؤالي بنبرة متشككة، من أنا؟ ومن أين أتيت؟ وأين أسكن؟ وإن كنت أذهب إلى المدرسة أم لا؟ أسئلة كثيرة محرجة؛ جعلتني أخاف دخول القصر مرة أخرى، حتى حين تناديني سماء، أكتفي بتبادل الكلام معها من خلف سور القصر، ثم أمضي بسرعة قبل أن تشاهدني والدتها، لا أريد أن تعرف سماء أنني أسكن في بيت سقفه من صفيح، لا أريد أن تعرف عني أي شيء.

في المدرسة يعلق الناظر اسمي في لوحة الشرف بعد حصولي على أعلى الدرجات، لكن حتى هذا الحدث لم يخفف من خجلي الشديد حين يقف باص المدرسة أمام بيتنا، وأخرج أنا وأخوتي من البيت ذي السقف

الصفيحي، ونصعد إلى الباص أمام أعين التلاميذ كلهم، كنت أفكر أنهم يسخرون مني لأني أسكن في هذا البيت، حتى منذر- زميلي الذي ينافسني على الدرجة الأولى ، يعرف أن هذا هو بيتنا، وأن حسان أخي يتكلم كثيرا، وكنت أخجل من حسان، وأتجنب الكلام معه في المدرسة إلى حد التجاهل، وإن سمعت أحدا يتكلم عنه قائلا إنه "بالع راديو" كنت أدعي عدم السمع. أحب حسان، لكنني أخجل منه ومن بيتنا، وأتمنى لو كنت مثل باقي البنات ببيت عادي وأخ طبيعي لا يتحدث لكل التلاميذ قصصا تشبه الحكايات التي يقرأها. يؤلف حسان من أوهامه خرافات عن أبطال وهميين خارقين عرفهم، وجاءوا إليه في الليل، أسمع من الفتيات أن حسان يستعين بدلالات من حصة الدين حين يشرح الشيخ عن كرامات الأولياء. كان حسان يقول لرفاقه: "شايفين.. شايفين كيف الأشيا العجيبة كانت تصير من زمان". يرد عليه أحد التلاميذ: "إيه بتصير مع الأوليا والصالحين مش معك يا حسان".

يحس أخي بانكسار طفيف، وأحس بغيظ ونقمة عليه وعلى تأليفه الأوهام، لكن انكساره للحظات لا يدفعه للتوقف عن تأليف القصص العجيبة التي كان يحكيها لكل طلاب المدرسة.

القصص، التي يؤلفها حسان، ويخدع بها طلاب المدرسة كثيرة، بدأت بحكايا وهمية وأبطال خرافيين، ثم صارت تتدرج ليصير بعضها مقنعا، ومقبولا بحيث ينطلي عليهم، مثل تأليفه حكاية أن أبي كان من المضاربين الكبار في البورصة، وأنه خسر كل أمواله، وهجر البيت لأنه يخجل من مواجهتنا، لذا انتقلت أمي من بيروت إلى البقاع، وعاشت في هذه المنطقة

البعيدة كي لا تلتقي بأحد من معارفها القدامى، هذه الحكاية المؤلفة من قبل حسان تصل إلى مسامعي عن طريق إحدى الفتيات، وكأنها تسألني عن صحة ما يقول أخي، أمط شفتي بأسف أحاول تغيير مجرى الحديث بحيث لا أنفي ولا أثبت، لكن يبدو أن حسان بعد عدة أشهر ينسى القصة التي ألفها، فيقوم بابتداع حكاية جديدة تختلف تماما عن الأولى كأن يقول إننا كنا مهاجرين إلى البرازيل، وكان أبي تاجرا كبيرا خرج عليه لصوص سرقوا أمواله، وتركوه في الطريق مطعونا عشرين طعنة، يُمثل حسان أماكن الطعنات والدم المسفوك على الأرض، يقلد نواح أمي وصياحها، ويحكي عن تخلي أقاربنا عنا، وكيف أخذ شركاء أبي كل أمواله، وتركونا مفلسين.

في بعض الأحيان يقوم أحد التلاميذ بسؤال حسان بهدف التشكيك بالحكاية فيقول له: "يعني أنت لما رجعت من البرازيل كان عمرك تسع سنين يعني بتعرف تحكي برازيلي؟"، فيرد حسان بثقة: "طبعا.. شو بدك تعرف؟" يسأله الآخر: "شو يعني مرحبا...كيفك؟" ينطق أخي كلمات غير مفهومة.

أسأله بعد أن نعود للبيت: "كيف عرفت تحكي هيك؟" يضحك ويقول لي:"يعني إنت بتفكري إنه في حدا منهم بيعرف يحكي برازيلي.. لو شو ما قلت رح يصدقوا".

لكن حسان، الذي يؤلف الحكايات عن أبي وسفره وإفلاسه لم يحك لأي أحد الحكاية الحقيقية لغيابه.

في أوائل التسعينيات انتهت الحروب تماما. اضطر باسم للعودة إلى البيت، جلس عاطلاً عن القتال. ازداد وزنه، وظهر له وجه آخر – أكثر قسوة – لم تعرفه العائلة من قبل. صار له قباحة رجل مهزوم خسر كل شيء مرة واحدة.

كان يشتم ويسب لأصغر الأسباب، صار عاطلاً عن الحياة، بعد فقدان معركته وسلاحه.لم يعد يرتدي زيه العسكري الذي كان يتبختر به مثل طاووس مغرور. أصبح مثل أي رجل عادي، مطلوب منه مسؤوليات نحو أسرته يصعب عليه تحملها، بعد اعتياده حياة الثكنات العسكرية، والمبيت بين الأحراش والجبال والتخييم في البساتين والوديان.كان يحب الحياة وسط الحطام، ربما لأنه ظل يبحث عن هويته الحقيقية، الهوية، التي تقول إنه لا ينتمي إلى قيد الدرس.

وكان أطفاله، أطفال الثورة الفاشلة والوعود الخائبة، مجرد أطفال يراقبون العالم، وتختزل ذاكرتهم كل ما يرونه ويسمعونه.. كانوا ينظرون لباسم على أنه لم يفعل لهم شيئا، وأنه طوال عمره ظل مهتما ببذلته العسكرية أكثر من اهتمامه بهم. نجوى تعرف أنه بالفعل لم يفعل شيئا مهما نحو العائلة، لكنها – منذ تلك المرحلة– ظلت تدافع عنه وتبرر أخطاءه، ربما لأن هزيمتها هي عين هزيمته. ولأنها مثله، لكن بشكل مختلف، هي تحولت بعد أن تركت بيروت إلى كائن لا مبال، يُسلم دفة حياته للقدر من دون أي تدخل. تنتظر أن تقوم أمها سعاد بدور الخادمة والطاهية والمربية، وتتوقع العون من أختها ملكة لتسديد نفقات المدرسة، ولم تعد تمانع لو أسهم أي من أخوتها – غير الأشقاء– في تقديم يد العون لها، بل صارت تعتبر أن هذا أمرا مفروغا منه، وأن عليهم مساعدتها.

صار لباسم صورتان متناقضتان في ذهن كل من عرفه، الأولى صورة المناضل اليساري الشيوعي، والثانية الرجل العاطل عن العمل، المؤمن بالله والقدر، ثم مع مرور الوقت تقاربت الصورتان تماما، وتشكلت له صورة ثالثة مختلفة، وغامضة، بعد اختفائه المجهول، عقب زيارة مُحَمَّد الأمير بأسبوع واحد.

كان مُحَمَّد الأمير رفيقه في القتال، لكنه لم يكن مثل باسم، بل يعرف كيف يتدبر أموره ويبدل مواقفه حسب تغيرات المراحل والمصالح، "فلكل زمان دولة ورجال"، كما كان يردد دائما، لكن مُحَمَّد الأمير يحتاج الخبرات العسكرية التي يمتلكها باسم، لذا ظل على علاقة جيدة معه في كل المراحل، يعرف عنه كل صغيرة وكبيرة، كي يختار الوقت المناسب

لاستخدامه، وكان باسم في أضعف مراحله، مخذولا في كل ما آمن به. لم تتحرر فلسطين، ولم يتحرر الجنوب، ولم يعد هناك رفاق ولا أخوة. غادروا بيروت، وتفرقوا في بلاد الله.

جاء مُحَّد الأمير هذه المرة من "طرابلس" إلى "دير السرو" ليحرض باسم على قبول عرض السفر إلى إحدى الدول العربية التي تحتاجه كي يدرب جنودها. ظل باسم عبدالله جالساً في مكانه قرب باب البيت. الطقس بارد، الهواء يلفح وجهه ويترك أرنبة أنفه العريضة تتلون بالأحمر. كان ينظر إلى المساحة الصغيرة المزروعة أمام بيته، لم يبق فيها زرع أخضر، إلا بعض عروق من النعناع الذي يقاوم البرد ببسالة. يسمع صراخ نجوى تنادي على أحد أولاده.

نظر إلى الكرسي الشاغر الذي كان مُحَّد الأمير يشغله منذ قليل، مشى خطوات إلى خارج المصطبة التي كانا يجلسان عليها. لم يكن يعرف إلى أين يود الذهاب، لكنه أحس بحاجة شديدة للمضي بعيداً عن كل شيء. كان يرتدي بنطلونا قديما من الجوخ، وكنزة قطنية سميكة، ويضع حول كتفيه عباءة من وبر صوفي، لونها بني.

نداء الرحيل يناديه، والعرض المالي المقدم له سوف ينقذ الأسرة من شظف العيش، لكن هذا البلد الذي سيسافر إليه قيل إنه من الدول التي وافقت على اغتيال العميد، وقبول السفر يعني خيانته للرجل الذي رافقه منذ كان شاباً يافعاً، للقائد الذي اغتيل أمام عينيه، لحظة انهمر الرصاص على السيارة، التي كانت ستنقلهما معاً من الجبل إلى دمشق.

رفض باسم عبدالله أن يغادر بيروت مع أفواج المقاومة الفلسطينية التي غادرت العاصمة بعد الاجتياح الإسرائيلي في صيف١٩٨٢ لم يكن قرار باسم بعدم الخروج مع المقاومة الفلسطينية مناصرة للعميد فقط، بل لقناعته الخاصة بأنه ابن هذا البلد، وأن حمله هوية "قيد الدرس" لا تعني أنه ليس لبنانياً.

أما العميد، فقد حَلِم بحركة فدائية فلسطينية جديدة، لذا فر إلى سهل البقاع، هو ومن بقي معه ممن رفضوا مثله المغادرة. كانت الحكايات المروية عن العميد تصب كلها في انتقاده اللاذع لمن فر من القادة العسكريين، خلال مواجهة الاجتياح الإسرائيلي، لذا أراد تكوين خلية تجذب الذين بقوا من الفلسطينيين واللبنانيين المؤمنين بالقتال؛ تعيد إليهم روح الثورة ووهج الكفاح، لكن القدر لم يمهل العميد أبدا، فقد تم اغتياله على طريق "ضهر البيدر"، حين كان برفقة مساعده باسم عبدالله، الرجل الأقرب للعميد، وصديقه المخلص.

التقى باسم مع العميد في الزمن المزدهر للثورة الفلسطينية، كان وقتها في الخامسة والعشرين من عمره حينها، تنقل بين عدة أحزاب واكتسب مهارات قتالية منذ كان في السادسة عشرة من عمره، ثم تعرف إلى العميد الذي صار بمثابة أب روحي له. الشجاعة، التي يتميز بها باسم هي التي جعلته مقرباً من العميد، الذي اختبر معدنه في الصلابة والإخلاص، ولما أبدى الشاب قوته فيهما، أرسله العميد في دورات عسكرية إلى روسيا ليحصل على المهارات المطلوبة التي تؤهله ليكون مساعده الخاص. علمه العميد قراءة الكتب الحربية، والسياسية، وروايات الأدب الروسي التي

تحكي عن الحرب، كما أن العميد هو من أطلق عليه لقب "المدفعي"، وهو من منحه أسماءه الحركية "سعيد" "حسن" و"خليل"، تلك الأسماء التي كانت تتبدل وفق المناطق التي يعسكرون بها.

شارك باسم عبدالله مع العميد في أحداث "تل الزعتر" عام ١٩٧٦، كما ظل معه خلال صموده في بيروت عام ١٩٨٢. العميد هو من دافع عنه وتغاضى عن بطاقة "قيد الدرس" التي يحملها، ومنحه هوية فلسطينية مزورة، وجواز سفر لبناني مزورا كي يسافر به في المهمات المطلوبة.

يذكر باسم بوضوح يوم اغتيال العميد. غادرا معاً إحدى الثكنات في الجبل، انطلقا في سيارة رانج روفر تكشف معظم أجزاء الجسم. تابعا طريقهما بسرعة، ثم قبل وصولهما إلى شتورة وبعد أن غادرا الاستراحة التي كان يجلس فيها العميد في كل مرة قبل متابعته السفر إلى دمشق، اندفعت زخات الرشاش من سيارة عابرة مثل غمامة نارية حمراء أصابت جسد العميد وأردته قتيلاً، وأصابت باسم في عينه اليسرى وذراعه.

بعد موت العميد، أحس باسم بالهزيمة الحقيقية. ما الذي سيكون أكثر فجيعة بالنسبة له من وصول القوات الإسرائيلية إلى بيروت من احتلال الجنوب، ومن موت العميد أمام عينيه؟! كان العميد بالنسبة له الرجل القوي الذي يدير المعارك من الخندق لا من المدينة، الرجل الذي يسعى لإعادة تقييم ما يجري مع إيمان راسخ بالقدرة على الوقوف بعد كل انكسار.

لم يحضر باسم جنازة قائده، لم يحتضن نعشه، لم يشارك في دفن

جثمانه، لأنه كان ممددا على سرير ملوث بالدم في أحد مستشفيات البقاع، وفيما بعد عرف أن جثة العميد تم نقلها إلى دمشق، حيث تقيم عائلته، وهناك وُري الثرى، بعد أن شيعته مجموعة من رفاق السلاح.

الحركة الفدائية التي مات العميد قبل أن يؤسسها، تحولت إلى أمر واقع على يد أطراف أخرى كانت حول العميد وسمعت بها، وسرعان ما حصلت على تمويلات مالية من دول وضعت نصب عينيها مصالح سياسية مشتركة ستعود عليها من نهضة حركة فدائية جديدة. كان باسم عبدالله من الأسماء التي انتظمت في صفوفها على اعتبار أنها امتداد لأفكار العميد، ولم يكن حال باسم قوياً وثابتا كما كان في حياة قائده، بل ظل وضعه غير مستقر، لأسباب عدة أهمها أنه فقد الرجل القوي الذي كان يدعمه، وظهرت على الساحة وجوه غير أليفة تشكك في انتمائه ولا تحمل له الثقة. لم يكن باسم يسعى للزعامة، أو للانقلاب على الحزب الجديد، لكن كثرة اعتراضاته ضاعفت من الشكوك حوله، ولم يمر وقت قليل حتى اشتعلت الخلافات الداخلية بين القادة الكبار، وارتفعت وتيرة الأزمة بعد وقف الإمدادات المالية من الدول التي ساعدت في البداية على نشوء الحركة الفدائية الجديدة.

لماذا شاخت الحركة باكراً جداً؟ كان باسم عبدالله يفكر في هذا الأمر، ويعترف لنفسه بأن الحركة الجديدة قامت على الفوضى والعشوائية، ثم هناك الانشقاقات والصراعات الداخلية وأنهار الدماء التي تدفقت في اتجاهات خاطئة. هو لا يعرف الحقيقة تماماً، لكن ما يعرفه الآن أنه يواجه عرضاً مادياً سخياً لشراء خبراته العسكرية التي آل مصيرها إلى التجمد

تحت سقف صفيحي في هذا البيت البائس.

ظل باسم عبدالله يظهر ويختفي، ثم يظهر ويختفي، وكانوا جميعا يعيشون على أمل انتظاره، وعلى حلم الأسرة المكتملة، لكن هذا الحلم المشترك بينهم سينتهي في وقت ما، سيذوب تدريجيا إلى أن يتلاشى تماماً.

غادر باسم في يوم شتائي بارد. كان ابنه الصغير حسن أحب أبنائه إليه، شده إلى حضنه، تعلق الولد في رقبته، كما لو أنه يعرف أنها المرة الأخيرة، التي سيشاهده فيها.

نجوى سلمت عليه ببرودها المعتاد، وقفت إلى جانب أمها سعاد التي كانت تدعو له بتيسير الطريق، ويبدو دعاؤها متكسرا عند حدود شفتيها المتشققتين بسبب البرد. لم تكن ليلى التي بلغت عتبات الصبا، ولا ياسمين ذات الثمانية أعوام تعرفان ماذا يعني أن تكونا ابنتين لأب غائب، أما حسان، الذي بانت عليه بعض ملامح الرجولة في شاربه الأشقر، فقد شد على يد والده، وهو يعده بأن يهتم بالأسرة في غيابه.

كان وداعا حزينا، لأن الجميع يعرف ضمنا أنه سيطول لزمن مجهول، وأن باسم يرحل لأنه لا يريد البقاء معهم، ويكره المطالبات اليومية بإيجاد حلول للصعوبات المعيشية المتزايدة. مضى باسم، وهو يقنعهم بأنه يغادر من أجلهم، لكن سعاد ونجوى وحسان أيضا كانوا يعرفون أن هذا ليس حقيقيا أبدا.

سافر باسم عن طريق المصنع إلى دمشق، ومن هناك غادر بجواز سفر لبناني مزور أعطاه له مُحَمَّد الأمير. بعد مغادرته، لن يظهر أحد من الرفاق

ليتركوا بعض المال لنجوى ويطمئنوها على زوجها، بل إن الرفاق حين عرفوا بما قام به باسم اعتبروه خيانة لهم.

عمل حسان في محطة بنزين، كان يمشي مسافة طويلة تحت الأمطار الغزيرة كي يعود إلى البيت البارد، الخالي من الخبز والطعام، يحس بنقمة كبيرة على أبيه. يجد نجوى في انتظاره لتأخذ منه البقشيش الذي حصل عليه طوال اليوم، كي تشتري لهم الخبز والحليب والبطاطا والشمع. المواد الأساسية، التي تساعدهم على الحياة.. تنزع أمه عنه الملابس المبلولة، وتقوم بتنشيف أطرافه، وهو يقف عند الباب الداخلي، ينز مياه المطر من معطفه، وبنطاله وحذائه. تعطيه بيجامة وكنزة صوفية، وتطلب من إخوته أن يفسحوا له مكانا للجلوس قرب المدفأة، صار مميزا عنهم لأنه يذهب للعمل أربع ساعات يوميا بعد انتهاء الدوام الدراسي، ويوم كامل خلال الإجازات. يحدث هذا في أيام الإفلاس التام، أما في الوقت الذي تتمكن فيه نجوى من الحصول على المال من أحد أخوتها، فكانت تعفيه من تكبد هذا العناء.

أما ليلى، فقد بدأت في المهنة التي ستتحول إلى مهنتها المستقبلية، فقد حولت الغرفة المقابلة للبيت إلى دكان صغير. في أول الأمر كانت تشتري علب البسكويت والشوكولا والشيبس وتبيعها لأطفال الجيران، ثم طورت الأمر فصارت تصنع قوالب الكيك، والكعك البيتي مستفيدة من البيض الذي تحضره أمها من محل الخال وهيب، كما تصنع بيتزا بالخضروات، وفطائر بالدجاج والأعشاب. كانت الجدة سعاد أول من ساعد ليلى على تنفيذ أفكارها، علمتها كيف تصنع العجين، وكيف تخمره،

وتفرده ليكون رقيقا، ثم تخبزه في فرن كبير اشترته لهذا الغرض. تضع ليلى في الغرفة بعض الكراسي البلاستيكية الصغيرة، وتقدم قطع البيتزا والحلويات على أوراق بيضاء من دون صحون، وتقدم الشاي والزهورات أيضا. اعتاد بعض شبان الحي وبناته أن يقصدوا دكانها الصغير ليتذوقوا البيتزا بالدجاج، وفطائر السبانخ والزعتر. ظلت ليلى تستقبل الجميع بترحاب حتى اليوم الذي انضم جاسر الشمري إلى زوار المكان، كان يأتي وحده، أو برفقة أحد رجاله، يشتري كميات كبيرة من المأكولات، ثم يجلس لوقت طويل بحجة شرب الشاي، لاحظت ليلى تلميحاته الملغزة، والعبارة التي يطلقها بين حين وآخر كأنه يتكلم مع أحد أتباعه: "قالوا من وين الحلوة، الحلوة من بيروت". وحين تزايدت تلميحاته صارت ليلى تتعمد أن تنسحب لحظة قدومه تاركة مهمة البيع لأمها أو أخيها حسان.

بعد مرور عدة أشهر على بدء ليلى العمل بدأت بالتفكير في التخلي عن دراستها، بغرض أن يكمل إخوتها الأصغر تعليمهم. تخلت عن حلم الالتحاق بالجامعة، لأنها تدرك جيدا أن ما تجنيه من مال قليل لن يغطي مصاريف الدراسة. استسلمت لقدرها طواعية حينا، وبحزن شديد في حين آخر. انتابتها حالات من الكآبة حين كانت تعرف أن إحدى صديقاتها في المدرسة التحقت بجامعة زحلة، أو ذهبت لتدرس في جامعات بيروت، تمنت أن تكون مثلهن محمية بعائلة مستقرة، أن يكون لديها أب يدافع عنها، ويمدها بالثقة التي تحتاجها لمواجهة العالم، لكنها كلما فكرت بأبيها غمرها ضباب داخلي، والتباس، وحيرة. حسان حسم مشاعره نحو الأب الغائب، بل إنه حسم مشاعره نحوه من قبل أن يغيب؛ كره حسان أباه، ولم يكن

يداري إحساسه، كان يُصرح بهذا أمامهم جميعا، ويعدد أسباب كرهه له. ليلى لم تملك هذا الوضوح والمجاهرة في الكشف، لأنها لم تكن قريبة من أبيها يوما كي تجد له مبررات مقنعة كما تفعل أمها، ولم تتعرض منه للإيذاء الذي ناله حسان. ليس هناك تاريخ خاص بينهما، تذكر أنه كان ودودا في بعض الأحيان التي لم يكن يحس فيها بالهزيمة، حين يشاركهم في جلسات الشواء، وفي نزهات برية سيرا على الأقدام، أو في السهرات الليلية مع الجيران قرب ساحة البيت، أو حين كان يغني في لحظات الصفاء "أنا يا رفاق من الجنوب"، لكن لمحات الود تلك لم تترك بصمة لا تنسى، بقدر لحظات الألم، حين كان يصرخ بهم، أو يُبدي تذمره من طلباتهم، في بعض الأحيان كانت تفكر أن كل الآباء يقومون بهذه التصرفات مع أولادهم، وليس عليها أن تكرهه فقط لهذه الأسباب، لكنها عجزت أيضا عن إيجاد أي أسباب ترسم فيها للغائب صورة مشرقة، لذا ظلت سيرة الأب بالنسبة لها محاطة بضباب كثيف لم ينجلِ، بل ازداد كثافة مع كل أزمة حياتية ستواجهها ليلى وحدها.

ذهب مع الريح



حسان

الموت مجرد لحظة فارقة، تقلب حياة البشر وتحولها من الوجود إلى العدم، مجرد لحظة كافية لأن تنزع أي يقين سوى بحقيقة الفناء.

ماتت جدتي سعاد في الربيع، تاركة مسؤوليات العائلة – التي اعتادت تحمل جزءا منها– على عاتقي أنا وليلى.

لم تكن تجاوزت عامها الخامس والخمسين. في ذاك اليوم أصرت على الذهاب إلى بيروت لرؤية خالي وهيب، وأخذتني برفقتها. قمنا بزيارة أقاربها جميعا، كما لو أن ملاك الموت منحها يوما كاملا لتلتقي فيه بمن تريد، وتفعل ما تشاء. هاتفت خالتي ملكة في اتصال أجرته معها من أحد السنترالات العمومية في شتورة، وانتهى الاتصال ببكاء جدتي، ووعد من

خالتي بأن تأتي قريبا إلى لبنان.

في المساء، قالت جدتي إنها تشعر بنغزات في قلبها، وطلبت من أمي أن تعد لها كوبا من النعناع، شربته ثم نامت بهدوء، وكان نومها الأخير.

صارت أمي أكثر شراسة في التعامل مع العالم الخارجي مع ظهور طامعين بها، أو بأختي ليلى. كان من الصعب عليها استيعاب المصيبتين : اختفاء الزوج، وموت الأم. تركنا أبي للأشباح الواقعيين والمتخيلين، وهي عزلاء، وحيدة في صحراء مجهولة، ترك لها القدر فجأة زمام القيادة، مما جعلها متجهمة معظم الوقت، ويصعب إرضاؤها، ترى نفسها على صواب في كل ما تفعله، ولا يمكن لأي منا مجادلتها، وفي حال بدأت نوبة من الصراخ، ستستمر لأكثر من ساعتين، تعقبها بمغادرة المنزل لزيارة إحدى الجارات، لتشكو لها منا. كنا نصمت جميعا مخافة أن تغادر أمي أيضا كما غادرنا أبي، ونظل وحدنا في "دير السرو".

بعد مرور عام على اختفاء أبي، وعودة شتاء جديد؛ فكرنا أنا وليلى بحاجتنا المُلحة لوجود سيارة، لأن أختي تحتاج إلى كميات من الطحين والسكر لإعداد مأكولاتها في مطعمها الارتجالي، كما أن أمي لم يعد بمقدورها عبور تلك المسافات الطويلة وسط عواصف الشتاء كي تحضر حاجيات المنزل.

تزامن هذا مع حصول جارنا تامر العراقي على تأشيرة هجرة للسويد، فترك لنا سيارته – "فيات" قديمة – مقابل ثمن زهيد جدا، لأنه أراد التخلص منها في كل الأحوال. كنا نعرف أنها تمشي مثل كلب أعرج،

لكنها أفضل من السير تحت المطر، وفي الوحول لمسافات طويلة.

لم تحاول أمي استخدام السيارة، ولا أنا، كانت ليلى هي التي سارعت في تعلم القيادة عبر بعض النصائح والمساعدات من ريما ابنة رضية، ورغم هذا ففي المرة الأولى، التي صعدت ليلى إلى السيارة وحدها، سقطت مؤخرة السيارة في الساقية المجاورة لبيتنا، خلال محاولة ليلى الرجوع للوراء.

في البداية، كنا أنا وليلى نذهب إلى "برالياس" أو" زحلة" بسيارتنا المتهالكة لشراء احتياجات البيت، فيما بعد صارت ليلى وسيطا لشراء الأغراض لمعظم سكان الحي وتخلت عن ضرورة مرافقتي لها. كانت أختي متفانية جدا، نالت لقب "قديسة العائلة"، تساعد الجميع عن طيب خاطر إلى حد مستفز أحيانا، ولا يُصدق بأنها تحمل هذه الطيبة، لكننا لم نستطع حمايتها أبدا، ظلت تواجه وحدها معارك الحياة، ولم نكن ندري أنها تنهار.

حين كنا نرجع أنا وليلى إلى بيتنا البارد نتجه مباشرة لنجلس في الغرفة الوحيدة التي تشتعل فيها المدفأة، بينما أمي في المطبخ تعد الطعام، أو في زاوية الغرفة مع ياسمين وحسن، ينتظرون عودتنا.

في إحدى ليالي يوم السبت، حين كنا حول المدفأة نشرب الشاي قالت أمي بشكل مفاجئ أن هناك فيلما مهما سوف يُعرض في التليفزيون، فيلم شاهدته هي منذ عدة سنوات، وتنوي مشاهدته من جديد، وكان من اللطيف أنها سمحت لي وليلى بالبقاء مستيقظين. أتذكر الغرفة الآن: التليفزيون في وسطها مكسور من أحد جوانبه لكن الشاشة لم يطلها أي خدش، النيران متوهجة في المدفأة، وأمي تجلس على مقعد منفرد إلى

الجانب الأيمن من الغرفة، أنا وليلى جلسنا على الصوفا إلى الجانب الأيسر بالقرب من أمي،فيما ياسمين وحسن يغفوان بهدوء على فراش ممدود على الأرض بالقرب من النار.

كان عنوان الفيلم "ذهب مع الريح" أخبرتنا أمي أن أبطال الفيلم هم كلارك غيبل، وفيفيان لي، ربما منذ تلك الليلة أغرمت بفيفيان لي، وصرت أرسم وجهها، وأبحث عن كل الفتيات اللواتي أجد فيهن ملامح منها. أمي كانت متأثرة بالفيلم جدا، ربما لأنه يدور عن الحرب الأهلية الأمريكية، وربما لأنها تجد في حياتها شبها مما عانته سكارلت أوهارا في تدهور الحال.

في كل مرة تركز الكاميرا على وجه سكارلت أوهارا تكشف شيئا من الغرابة في داخلها، تلك النظرة المتوترة، الابتسامة القلقة، وإحساس ما بكثافة حياتها الداخلية، وهذا الرجل كلارك غيبل، الذي تزوجها وحاول إقناعها بحبه، لكنها ظلت تعامله بلامبالاة.

ظلت أحداث الفيلم، بل تلك الليلة كلها عالقة في ذاكرتنا لأيام، نتحدث عما فعلته سكارلت أوهارا، وكيف بدت وحيدة جداً في هذا العالم، رغم أنها تقف بشموخ لتقول مع نهاية الفيلم: "غدا يوم آخر"، ربما أمي جعلتنا نشاهد الفيلم لأنها تؤمن بهذه المقولة، وتجعلها قادرة على الصمود في مواجهة أنواء حياتنا العاصفة. بدا أن بيتنا بسقفه الصفيحي، مُس بالفيلم، وأن أمي تأثرت من جديد بمأساة سكارلت أوهارا، أما ليلى فقد سيطر عليها الإحساس العاطفي، الذي تؤديه فيفيان لي.

كنا نعرف أن "ذهب مع الريح" مجرد فيلم، ولكنها كانت المرة

الأولى، التي يُعرض أمامنا فيلم يُقدم رؤية عن واقع ما، تبدو لنا بعيدة وقريبة في آن واحد، بحيث أننا كنا عاجزين عن الحديث حول مضمون الفيلم بوضوح، من دون أن نجد فيه شبها من أحداث أوأشخاص نعرفهم.



طعم اليتم

كنتُ أواجه العالم الغريب بخوف بنت يتيمة.

كأني تُركت وحدي بعد موت جدتي. شعرتُ بطعم اليتم الحقيقي. لم أتأثر بغياب أبي، كما حدث لي بعد وفاتها. رحلت الساحرة عن عالمي، أخذت معها عصاها وملعقتها، وإبرتها، والأقمشة الملونة، التي تصنع منها أدواتها العجيبة.

وكأن أبواب بيتنا كلها صارت مشرعة على المجهول.

اكتشفت كم أنا بعيدة عن أمي، وكم نحتاج من الوقت والقرب لمد جسور الحوار بيننا، بعد إدراكي أن علاقتنا مختزلة في تعليمات تُصدرها أمي كي أقوم بتنفيذها، ومع انشغال أمي أكثر بأختي ياسمين وأخي حسن، ازداد حال بيتنا سوءا. كان مطبخنا مدعاة للخجل. الفئران تسير وتمرح

بين الشقوق، المقالي مسودة، وطناجر الألومنيوم عتم لونها، الأرضية غامقة، ومكان وضع الصحون متآكل من الصدأ.

بنات الحي تطالبنني بتنظيف المطبخ فلا أقدر. لم أكن أتمتع مثلهن بتلك القوة الجسدية، التي تخولني أن أعمل في إعداد المأكولات لبيعها والحصول على المال، وأن أنظف المطبخ، وأغسل القدور والأواني، وأمسح الأرض، وأتخلص من الأقاويل التي يسببها لي مطبخنا؛ للحقيقة ليس مطبخنا فقط، بل كل أجزاء بيتنا، بدءا من الصالون ذي المقاعد المتهالكة، بقوائمها المكسورة، وقماشها المهترئ، ثم الطاولات الصغيرة، التي كانت بيضاء ذات يوم، وصارت مزيجا من بقع الشاي والقهوة والزهورات، أمي لم تكن تكترث بكل هذا، والجارات اللواتي كن يخفن من تعاستها ولسانها اللاذع، لم يكن يواجهنها بشيء من الانتقادات التي يواجهنني بها قائلات: "ليه بيتكن هيك...ليه ما بتشتروا عفش جديد؟"، وقد تستلم الحديث امرأة أخرى تقول: "كيف بده ييجي العريس يا ليلى يخطبك وبيتكن هيك؟".

أجتهد في تنظيف بيتنا، أقوم بكل ما في استطاعتي، وأحاول إقناع إخوتي بمساعدتي. تفرح أمي بتنظيفي للبيت، وتجلس عصرا كملكة على عرشها لتشرب القهوة، وتدخن سجائرها في غرفة الجلوس، تُسر أمي حين تترك مسؤلياتها لأي أحد، لذا تتعاطف مع أبي لأنه مثلها ترك مسؤولياته ملقاة على كاهل أحد آخر ومضى. كانت أمي تقول أمام الناس: "ليلى الصبية اللي حاملة الهم عني"، أما بيني وبينها تقول: "إن من واجبي أن أحمل مسؤولية الأسرة".

أنا ليلى، ليوله، لولو ..

أتخيل نفسي بطلة في فيلم لم يتم إعداده بعد.

لو كانت أحداث حياتنا، تدور على الشاشة؛ ستتغير النهايات، ربما تكون أقل بؤسا، لكن الأشياء في الحياة لا تقع كما هي في السينما، نحن لا نشبه أبطال الأفلام أبدا. على الشاشة هناك خالق يتدخل لتجميل العمل، وجعله أقل بؤسا. أيامنا نحن تسير بلا تحولات منعطفية سارة تُغير مسارها من حال إلى حال كما في الأفلام.

علاقتي مع نجوى غاب عنها الحنان؛ وصلتي مع باسم لا يمكنني وصفها لأنها مبتسرة جدا. باسم ونجوى (أبي وأمي)، اللذان شخصت نجمة سبب فشل علاقتهما بأن حروف اسميهما متنافرة. هل من المعقول يا نجمة أن هذا هو السبب الوحيد لكل ما حدث؟

نجمة كانت ترى أبي بحاجة للنار، لأن عنصر الماء يغلب علي، تردد على سمعي أن الإنسان مكون من عناصر أربعة، وحين يغلب أحد تلك العناصر على البقية يحتاج أن يقوي العنصر الضعيف كي يُحدث توازنا في جسده. مازلت أذكر كلماتها وجسدها الدائري يهتز، وهي تقول: "برج السرطان كتير تاعبك يا ميمتي، مخليكي غرقانة بالمي والبرد، لازم تقوي حالك بالمعدن والنار، البسي أحمر وبرتقالي وعقود وأساور من حديد ونحاس". كانت الحياة عند نجمة تقوم على التوازنات، لكنها لم تعرف أن السرطان يتربص بي في كل مكان حتى يكاد يلتهمني. نجمة...كم اشتقت إليك، وفناجين قهوتك، ونبوءاتك، التي لم يصدق منها سوى كثير من

الخيبات. وها أنا أصل للدائرة، التي هربت منها دوما: غياب الأمان. عرفت أن الخوف أقرب إلينا مما نظن، وأن معادلة الفقد حقيقة يقينية لا مفر منها علينا تقبل حلولها في أي لحظة.

لم تخمن ليلى أن ربيع سيظهر في حياتها مرة أخرى، الولد الذي يكبرها بأعوام قليلة، وكانت تلهو معه يوم تهجروا من بيروت، وسكنوا عند آل عامر، غاب عن حياتها ثمانية أعوام، بعد أن انتقلت عائلته إلى دمشق، وظلوا هناك عدة سنوات قبل أن يعودوا إلى بيروت مرة أخرى؛ ثم جاءت عمته فاطمة عامر إلى "دير السرو"، وأعادت التواصل مع عائلة عبدالله.

فتيات البدو أطلقن عليه لقب "المقاتل" لأنه كان ينظف بارودته كل يوم في فناء المزرعة التي تقيم فيها عمته. وحدها ليلى كانت تعرف أن اسمه ربيع، لكنها لم تخبر أي أحد عن ذكريات طفولتها معه.

كلما مرت ليلى بجانب مسكن فاطمة، الذي يتكون من مزرعة ملحق بها بيت صغير، تختلس النظرات لربيع، صار شابا وسيما، بشرته بلون البرونز، وكذلك شعره، عيناه لونهما زيتي، لامعتان، بنظرات ثاقبة. يجلس على الأرض يفك بارودته ويعيد تركيبها، غير مكترث بالعالم الخارجي

من حوله، ولا بقطيع الأبقار الذي يمر أمامه، ولا بالخراف التي يرتفع ثغاؤها حين تحاول فاطمة إدخالها إلى المزرعة، أو بالدجاجات التي تسير خارج القن خطوات قليلة تأكل فتات الخبز، وتلتقط الدود من الأرض، ثم تتعارك وتقفز على بعضها قبل أن تعود للقن طواعية، ولا نقيق الضفادع عند حافة النهر، عند المساء، والفتيات البدويات اللواتي يلفت نظرهن هذا الغريب، فيحاولن لفت انتباهه عبر السير ببطء خلال مرورهن أمام المزرعة، والكلام والضحك من دون أن يخفضن أصواتهن، متظاهرات بأنهن لا يعلمن بوجوده.

بالنسبة للفتيات البدويات كان هذا الغريب على الرغم من غموضه رجلا مثيرا، يختلف عن شبان البدو، لذا تغريهن فكرة الدخول في علاقة سرية معه، وإن كانت عابرة، علاقة يحتفظن بذكرى لحظاتها كي يستعدن تفاصيلها بعد سنوات.

يرتدي ربيع في الغالب بنطلون جينز، وتي شيرت أبيض، أو أزرق، قوي البنيان، في أوائل العشرينات من عمره.. لم تعرف ليلى في البداية سبب قدوم ربيع للإقامة مع عمته في المزرعة، خاصة أنه لا يشارك في شؤون البيت، بل يكتفي بفك بارودته وتنظيفها، أو إعادة تركيبها، يتأمل العابرين بترفع، يبدو عليه السأم، والرغبة بالفرار، كأنه مسجون في تلك المزرعة رغما عنه.

مع مرور الوقت أصاب ربيع الملل من فك البارودة وتنظيفها، وضعها جانبا، وصار يتلهى منذ ساعات العصر، بمتابعة العابرين أمام طريق

المزرعة، ثم في أيام لاحقة صار يتمشى خارج المزرعة نحو النهر، يجلس وحيدا قرب الشجرة الهرمة التي يتدلى جذعها ليلامس حافة المياه حين يكون منسوب النهر مرتفعا. يبدو كما لو أنه يستمع لوشيش الهواء الذي يشارك في تحريك أوراق الأشجار ودفع مياه النهر. يجلس على جذع الشجرة غير عابئ باحتمال السقوط في النهر، الفتيات اللواتي يسرن قرب النهر يعبرن رائحات وغاديات من وراء ظهره، من دون أن يلتفت للوراء نحوهن، كما لو أنه مشغول بالتركيز على نقطة معينة في صفحة النهر، ومن الصعب إبعاد بصره عنها، وحين يقوم للسير عائدا نحو المزرعة يشرد بنظراته على خط معين، من دون أن يقوم بالتلفت يميناً أو يساراً، يظل سائرا نحو هدفه، الوصول إلى المزرعة، والدخول إلى قلب العتمة، حيث يستلقي على الصوفا التي اعتاد الجلوس والمبيت عليها منذ وصوله،وبجانبه صفان من الكتب، إحداها مربوط بحبل، بعد فقده للغلاف الخارجي، وتفتت الأوراق من أحد الجوانب.

ذات يوم حين أرسلت فاطمة في طلب ليلى، لتوصيها بشراء بعض الأغراض من السوق، عرفت أن ربيع جاء من بيروت، وسيقيم معها لبعض الوقت. لم تحك فاطمة عن سبب قدومه، ولا عن البارودة، التي كان يصر على فكها وتركيبها كل يوم. تعرف ليلى أن فاطمة متكتمة في كل شيء يخص حياة عائلتها، لا أحد يعرف عنها أي شيء خاص، كل ما يعرفه الجميع أنها عانس، وحيدة، أتت بين ليلة وضحاها من الجنوب وسكنت المزرعة التي كانت مهجورة، ولا يعرفون لها صاحبا، عاشت بين أهالي المنطقة، وربت الدجاج والخراف في المزرعة، ولبست كما تلبس البدويات

الجلابية المخمل، أو قميصا وتنورة طويلة، وتحتها بنطلون قماش، وجزمة سوداء من البلاستيك لأعمال المزرعة، تضع على رأسها غطاءً للشعر تربطه للوراء، يداها خشنتان وجافتان ووجهها الأسمر عليه بقع من الكلف من أثر حروق الشمس.

لم تكن المرة الأولى التي تدخل فيها ليلى إلى بيت فاطمة، فقد اعتادت الجلوس عندها وشُرب القهوة، كلما اشترت لها بعض الأغراض خلال جولتها الأسبوعية في السوق. حين دخلت ليلى إلى المزرعة، كان ربيع مستلقياً على ظهره، يرفع أمام وجهه كتابا من دون غلاف، انهمك في قراءته، لم يلحظ وصول الفتاة إلا حين ضربت الباب بيدها ثلاث مرات، حينها اعتدل من جلسته، وهو يدعوها للدخول، وأعقب كلمته بتوضيح أن فاطمة في الجزء الخلفي من المزرعة، وأنها ستعود بعد دقائق. كان كل منهما يجول بعينيه بسرعة على هيئة الآخر عن قرب هذه المرة، قبل أن تنسحب نظرات ليلى نحو صف الكتب المتروكة على الأرض قرب الصوفا، التي كان يجلس عليها، كانت عناوين الكتب لأسماء لم تسمع عنها ليلى، كافكا، وكولن ويلسن، وغابريل جارسيا ماركيز، من بين الكتب الموجودة ميزت روايات قرأتها من مكتبة المدرسة مثل "البؤساء"، و"الحرب والسلام". في ختام ذاك اللقاء السريع، طلبت ليلى منه استعارة بعض الكتب، ابتسم مبديا دهشته من اهتمامها بالقراءة. تبادلا أخبارا مشتركة عن عائلتيهما، سألها عن أبيها، وكم مضى على غيابه، وإن كان يرسل لهما أي مراسيل أم لا. اكتفت ليلى بأن هزت رأسها بالنفي، ولم تضف أي جملة أخرى.

في اليوم التالي حين عادت ليلى إلى بيت فاطمة، بعد أن أحضرت لها الأغراض، جلست لوقت أطول معهما. شربت الزهورات، التي أعدتها فاطمة، تحدث ربيع عن ذكرياتهما الماضية أيام التهجير خلال الحرب، أخبرها أنه تخرج في كلية الصيدلة بدمشق،وحكت هي عن حياتهم الحالية في "دير السرو"، وعن توقفها عن الدراسة، وعملها في المطعم الصغير الذي انشأته. رويدا رويدا صار الحوار بينهما ثنائيا، وانتاب كلاهما ذاك الدفء الطفولي، الذي قرب بينهما ذات مرة حين كانا صغارا.

توالت زيارة ليلى إلى مزرعة فاطمة، كانت مشدودة نحو ربيع تفكر فيه طوال الوقت حين تكون وحدها، لم تضع افتراضات لشكل العلاقة معه، لكنها تخيلت نفسها بين أحضانه، وتمنت أن تلمس كتفيه وصدره.كان ربيع يتغيب عدة أيام، ثم يعود للسكن عند عمته، وكانت ليلى تعرف بغيابه لحظة ترى نوافذ المزرعة مغلقة كلها، والباب الخشبي مُقفل، يغمرها إحساس بأسى موجع، يعتصر قلبها، ولا يعود سكونها إلا بعد عودة ربيع.

في إحدى الأمسيات حين دخلت ليلى إلى المزرعة، لم تجد أحدا في الغرفة التي اعتادوا الجلوس فيها، كانت تلتفت عائدة إلى الخلف حين دخل ربيع من الباب الخشبي الصغير، خلال لحظات كانت كما لو أنها دُفعت دفعا إلى صدره، أمسكها بيد واحدة، وأغلق الباب باليد الأخرى، ظلال المساء تنعكس محمومة على وجهها، وهي صامتة تماما، ترتجف، تنظر إلى جانب عنقه، نظراتها تتعلق عند صدره ورقبته قبل أن ترتفع نحو وجهه، كانت في عينيه رغبة لاحتوائها، تلمس وجهها وشعرها، مرر أصابعه على

شفتيها، لونهما الوردي يبدو بوضوح رغم جفافهما، حين عانقها تنشق في جسدها مزيجا من رائحة الخزامى وزهر البرتقال، وحين اندفع بقبلات متلهفة على شفتيها وعنقها كانت مستسلمة له تماما، قبل أن ينزع جسده عنها فجأة، ويسير مبتعدا.

لم يبتعد ربيع طويلا، تكررت اللقاءات بينهما، عرف كل منهما جسد الآخر أكثر، وترك بصمته عليه في لذة القبلات الشغوفة والعناق الطويل.

وعود كثيرة سمعتها منه ليلى ، أنهما سيبقيان معا، وأنها لن تكون لرجل آخر، لكنه مضى من حياتها مثل وهم كبير، مثل نيزك، تاركاً قبلاته على شفتيها، وأعلى جسدها، غير مدرك أن هذه الفتاة الغضة، لا يمكنها احتمال مثل هذا الانكسار. غادر عالمها، مخلفاً دوياً مخيفاً في داخلها. ظلت تتساءل لوقت طويل لماذا لم يودعها قبل رحيله؟ ولماذا لم يأت مرة أخرى ليزور عمته؟ ولماذا لم يسأل عنها أبدا؟ ولِمَ لم تأت فاطمة على ذكره أمامها؟

لكن ليست حكاية ربيع فقط هي الحكاية التي كسرت ليلى، وحولتها إلى كائن شبحي، يزن خمسين كيلو جراما أو أقل. كائن بأعصاب مشدودة لا ينام، لا يأكل، بشعر بالرعب طوال الوقت.

بعد مرور قرابة عام على اختفاء ربيع، جاءت نجمة وعرضت على نجوى زواج ليلى من رجل يعمل موظفا في الجمارك، طلب منها الوساطة للزواج فقد شاهد ليلى أكثر من مرة في مناسبات عابرة، وأعجب بها. وافقت ليلى بلامبالاة تجاه ما سيحدث، اندفعت للزواج بسرعة، لم تمهل

نفسها وقتا للتفكير، أرادت الفرار من حكايتها مع ربيع، ومن الفقر، ومن هوية "قيد الدرس" التي جعلت جاسر الشمري يفكر في ضمها إلى قائمة زوجاته.

ظنت ليلى أنها ستبدأ من جديد مع شخص آخر، ربما تحبه بمرور الوقت، وبزواجها من موظف جمارك لبناني ستحمل هوية ولن تظل من سلالة "قيد الدرس"، هكذا فكرت بالخلاص الفردي. لم تدرك فداحة ما فعلته بنفسها إلا لحظة أصبحت وحدها معه، كما لو أن هاوية انفتحت لتبتلعها بلا رحمة.

طي ذاكرة معتمة

ليلة زفافي كانت قاسية جدا، منذ بدايتها.

رجال أغبياء جاؤوا لاصطحابي لمنزل الزوجية، لم يكن بينهم أبي أو خالي وهيب، أمي تعيسة كما هي عادتها في الأفراح أو المناسبات التي تضم جمعا من الناس؛ أما أنا كأني أتفرجُ على بنت أخرى تستعير جسدي لتسكنه وتتحرك به .

ضاع خاتمي في بداية الليلة، إنه أول حدث ينذر بالشؤم. فيما بعد تسارعت الأحداث بعد ذهاب المدعوين وبقائي وحدي مع حميد، أُغلق الباب علينا، وأيقنت أن هذا الرجل صار له الحق في امتلاك جسدي. لمسات متعجلة غير ودودة على فستان زفافي لنزعه عني بسرعة، قبلات نهمة على وجهي وعنقي أشعرتني بالخوف والانقباض، جسدي يتجمد رغما عني، أحاول أن أبدو طبيعية، فيما النبرات والكلمات والحركات التي تصدر عنه تتجه نحو رغبته تأكيد الامتلاك والسيطرة، لا نحو علاقة

مشاركة حميمة في الليلة الأولى. لحظة تملصت منه ووقفت في زاوية الغرفة، ترتجف أطرافي من الذهول ومن تفكيري في الأيام القادمة؛ أمسكني من شعري وهو يدفعني نحو السرير، عرفت أنه يستعذب العنف، ولم يكن من اليسير علي اكتشاف هذا من قبل.

ما الذي يحدث؟! كنت أفكر! كيف للرجل المهذب والمبتسم، أن يضع على وجهه هذا القناع السميك، فلا أرى وجهه الحقيقي إلا بعد أن أطبق بيديه على عنقي ؟!

أسرعت الى الحمام وبقيت مختبئة، تمنيت أن أظل هناك لكنه صار يقرعه ببطء أولا، ثم بقوة، ثم بتهديد وصراخ أجبرني على الخروج.

إنها من بين أبشع الليالي في حياتي التي أتمنى محو كل تفاصيلها.

في صباح اليوم التالي ضرب ثلاث مرات على الحائط الذي يفصلنا عن بيت أسرته، تلك الضربات علامة متفق عليها ليخبرهم بانتهاء المهمة.

لم يكن بجانبي،لم نتبادل تحية الصباح..لا أعرف.. لا أريد تذكر كل الأحداث.. أوضح ما في ذاكرتي أن أمه جاءت تزغرد، كنت ما أزال في سريري. ليس الخجل فقط ما أحسست به، كان مزيجا من الخجل والبشاعة المعجونة بالحقد على ذاتي التي أهنتها بهذه الطريقة.

حميد لماذا تزوجني؟ لماذا اختارني أنا بالذات! أنا البنت الفقيرة التي غاب والدها في مصير مجهول التي لم تكمل دراستها وتحمل هوية "قيد الدرس"، لماذا لم يتزوج من فتاة أخرى من أسرة ميسورة، أو عادية ليس فيها الندوب الموجودة في أسرتي!

شهران فقط استمرت خطوبتنا، التقيته خلالهما مرات قليلة، قال أبي أعجبته حين رآني في إحدى المناسبات، وحين حاول تقبيلي أول مرة سألته إن كان يحبني، رد بعبارة غامضة "أنت بتعرفي". لم أكن أعرف شيئا، كل ما أعرفه أني أحتاج لبيت فيه كثير من الحب والأمان. لكني لم أحصل على ما أردت.

ملعقة ذهب صغيرة

تباعدت ليلى عن الأسرة. منعها زوجها من زيارتهم، كانت أمها تذهب لرؤيتها بين حين وآخر، تلاحظ كيف تزداد شحوبا وحزنا، كأنها مصرة على الاستمرار في تقديم نفسها كضحية! لم تعد تتكلم كما كانت فيما مضى، لم تعد ضحكتها تحضر في حياة العائلة.

تغيرت تماما، حتى ألوان ثيابها صارت قاتمة ولا تشبهها. هل تجمعت خلايا الحزن داخل جسدها وظلت تنخر به، ولم يتنبهوا لما كان يحصل لها؟ كانوا غافلين عنها، ولم يخمن أحد أنها أكثر هشاشة من احتمال كل ما مر بها.

لم يبق من ليلى، سوى نظراتها البراقة ولون عينيها السوداوتين، قصت شعرها الأسود الطويل، نحل وجهها، غارت عيناها وتشكلت حولهما

هالات سوداء. البنت الجميلة التي كانت تعج بالحيوية والصحة صارت امرأة تحاول بجهد مقاومة كل الأحداث السيئة التي وقعت لها. سيلزمها وقت حتى تتعافى وتعود إلى إيقاع حياتها شبه الطبيعي، ستحتاج إلى كثير من البوح قبل أن تنسى مشاهد حميد وهو يتعاطى المخدر في الليل، ثم يبدأ في الثرثرة لساعات طويلة، قبل أن يدفعها إلى السرير بعنف تاركا بقعا زرقاء على جسدها كله.

لن يعرف سوى حسان الأسباب الحقيقة لفرارها من حميد، وقرارها الانفصال عنه، حتى أمها لن تعرف التفاصيل التي آلمت ليلى حتى الموت، سيظل جزء كبير من الحكاية طي ذاكرتها المعتمة.

لم تتأخر ليلى في كشف قناع حميد. إنه سمسار بين رجال السياسة، يتم استخدامه في أعمال مشبوهة، حياته كذبة كبرى من اختراعه؛ كذبة جحيمية كادت تودي بها وبإبنها إلى الهلاك. الرجل الذي قدم نفسه أمام عائلتها بأنه يعمل موظفا في الجمارك كان مطرودا من مهنته لتورطه في قضايا رشوة، ولاستخدام سلطته في تزوير أوراق رسمية تسهيل دخول سلاح ومخدرات عبر الحدود البرية، والمساهمة في عمليات مشبوهة من سرقات وتهديدات.

في الأشهر الأولى، ظل حريصا على التكتم، في كل ما يتعلق بخصوصياته، مكالماته الهاتفية الغامضة، أوقات عمله غير المنتظمة، ثم علاقته الغريبة مع رجال مشبوهين. أحست ليلى أن ثمة أمور غير طبيعية تحدث في حياة زوجها، ليس من حقها أن تسأل، أدركت هذا من ردات

فعله العنيفة على أسئلتها، هو فقط الذي يحق له السؤال، لكن الحدث المفصلي الذي جعلها تدرك حقيقته كاملة، في الليلة التي استمعت لحواره مع أحد شركائه، انقلب الكلام بينهما إلى شجار، انتهى بأن غادر الرجل البيت، وهو يهدده، ويتوعده. لم تكن نائمة، سمعت كل ما قيل، في ذاك الوقت كانت حاملا في شهرها السادس، وتعاني من آلام مستمرة، حين واجهته بما سمعته، انهال عليها بالصفعات من دون وعي. نزفت كثيرا في تلك الليلة، لكنها نجت، هي وجنينها الذي أبصر النور بين أبوين على شفير الطلاق.

عندما بلغت ياسمين الرابعة عشر من عمرها صارت شخصا آخر غير الطفلة التي كانت على وشك الموت، وكما لو أنها تحولت إلى جنية فاتنة قادرة على إشعال معركة بين مجموعة من الشبان. أخذت ياسمين من نجوى قامتها الطويلة، شعرها الغجري مع لون نحاسي يميل للأصفر، بشرتها برونزية لامعة، وعيناها بلون الزيتون الأخضر، بأهداب بنية كثيفة، شفتها السفلى تتدلى في إثارة لا يخطئها النظر، لكن ليست ملامح ياسمين وجمالها الجارح فقط السبب في إشعال المعارك، بل تلك الفتنة في لفتاتها وحركاتها الأنثوية المبكرة.

ياسمين هي قبلة الأنظار في كل الأفراح التي تقام في "دير السرو"، ترقص، تغني، تشارك الشبان في الدبكة، وتعرف رغم صغرها كيف تمارس لعبة الغواية، بحيث ينقلب الفرح إلى معركة لأن شابين يتعاركان من أجلها.

لم تنتبه نجوى لجسد ابنتها الفائر، ولم تكترث للكلام، الذي بدأ يدور حولها.

"ياسمين لم تزل طفلة"، هذا ما رددته نجوى في سرها وأمام الناس. تغاضت عن فشل ياسمين في الدراسة، وولعها بالغناء والرقص، ربما لم يكن تغاضيا بقدر ما هو ضعف عن الفعل، بعد ذهاب حسان للعمل في بيروت وزواج ليلى وابتعادها.

لم تنتبه نجوى أيضا لرجل يحوم حول ياسمين في كل الأفراح، مغن شعبي يدعى عماد أبو الوفا، في الثلاثين من عمره، استطاع أن يسيطر على عقل الصبية، ويجعلها ترافقه في كل الأفراح ليشكلا معا ثنائيا لافتا للانتباه.

ذات نهار استيقظت ياسمين من النوم على صراخ أمها .زعيقها يرتفع، يمر عبر جدران البيت، وسقفه الصفيحي. لم تكن نجوى في الغرفة، ولا في البيت كله، بل صوتها يحضر بالنيابة عنها. وقفت ياسمين بسرعة لتحدد مصدر الصوت، انسدل قميص نومها القطني الأزرق حتى غطى كل جسدها، عبرت بسرعة نحو المطبخ، غسلت وجهها عند حوض غسيل الأطباق، إذ لم يكن هناك مغسلة في الحمام، كما لا توجد مرآة. المرآة الوحيدة التي كانت موجودة في البيت هي مرآة دائرية صغيرة، علقها حسان في مسمار صغير في غرفة المعيشة. أسرعت ياسمين نحو الخارج لتستطلع سبب صراخ أمها الذي يقابله صراخ امرأة أخرى لم تتمكن من تمييز صوتها. خمنت ياسمين أن الحي كله استيقظ على ذاك الصراخ المتبادل، وحين اندفعت متجاوزة الباب الخارجي، شاهدت أمها تخرج من بيت إنعام بسرعة الصاروخ، والغضب يهز جسدها هزاً، ويزيد من توهج شعرها الأحمر، بحيث تبدو قامتها الطويلة أكثر طولاً، أما وجهها فكان منتفخا، وعيناها يتطاير منهما شرر النزاع، لمعت ملعقة الذهب الصغيرة في

يد نجوى اليسرى، تقبض عليها كمن تقبض على طفل تخشى عليه أن يؤخذ رهينة في الحرب.

دخلت الأم إلى البيت، وهي تزمجر وتهمهم بعبارات تختلط فيها الشتائم واللعنات، دفعت ياسمين إلى الداخل أمامها، وأغلقت باب البيت الرئيسي الذي يتكون من الحديد والزجاج، وقفلته بالمفتاح، ثم نزعت المفتاح من الباب.

أدركت ياسمين أن الأمر له علاقة مباشرة بإنعام وبالملعقة الذهبية، التي تعتز أمها بها جدا، لكنها لم تتمكن من استنتاج أية تفاصيل أخرى. دخلت نجوى إلى الغرفة وجلست على الأرض، تتصاعد أنفاسها بتلاحق، كما لو أنها انتهت من مهمة مقدسة، فالملعقة الذهبية ما تزال في يدها.

اقتربت منها ياسمين، وسألتها عما يحدث، لكن نجوى لم ترد. لم يكن مضى على دخولها إلى البيت عدة دقائق، حتى علا صوت ارتجاج الباب الرئيسي، ومحاولة فتحه، وحين لم تنجح المحاولة، تم قصف الباب بحجارة ضخمة، ارتج الحديد، تساقط الزجاج على الأرض، وصار الممر الداخلي مستباحا أمام الأعين الغريبة، ارتفع صوت إنعام مهددا متوعدا، بمزيد من الدمار، أرادت ياسمين التحرك نحو الخارج، لكن الأم أمرتها بالجلوس مكانها، تسللت ياسمين إلى الغرفة المجاورة، التي تمكنها من رؤية الشارع، شاهدت إنعام تسير عائدة نحو بيتها، بعد أن يئست من خروج أي أحد منهم لتتم معه المعركة التي بدأتها الأم.

استيقظ الحي على الجزء الأخير من عراك المرأتين، لكن لم تتدخل أي

من النسوة فيما يجري، إذ على الرغم من أن إنعام بدوية مثلهن، إلا أنهن لم يدافعن عنها أمام هجوم نجوى الغريبة، لأن نجوى على علاقات جيدة مع نسوة الحي، والجميع يعرف أنها لن تقوم باقتحام بيت إنعام والتهجم عليها، إلا لوجود سبب قوي يبرر فعلتها.

لم تمض ساعتان على الحدث، حتى جاء وفد من النساء البدويات يستطلعن الخبر لإبلاغ الرجال كي يتصرفوا مع إنعام في حال قيامها بإساءة ما نحو نجوى.كانت رضية ضمن وفد النساء الذي دخل بيتهم للاستطلاع، كما جاءت جارات لا تربط نجوى بهن علاقة قوية. إذ على الرغم من غياب رب الأسرة، مازالت نجوى تمتلك بريقا يجعلها مختلفة عن سائر النساء البدويات والفلاحات، أما سائر عيوب نجوى الكثيرة فلا يعرفها أحد سوى من يقترب منها، مثل كبريائها، تعاملها مع نفسها مثل كونتيسة سابقة، ترفعها واستيائها من كل التفاصيل التي تتعلق بالحياة اليومية، مثل: التنظيف والطبخ والغسيل ثم نبرة السخرية المستمرة في صوتها، التي تمطر بها أي شخص مهما كانت مكانته. كانت تحس بأنها أفضل من سائر النساء، لكن سوء الحظ يتربص بها، فقادها إلى بلدة "دير السرو".

لم تحك نجوى عن السبب الحقيقي لما فعلته بإنعام، بل قالت إن إنعام قامت نحوها "برمي المحصنات"، فقد استغلت إنعام غياب زوج نجوى لتلوك سمعتها وتثير حولها وحول ابنتها ياسمين الأقاويل؛ وفي حال سكتت على فعلتها، ولم تقم برد فعل عنيف فإنها ستجرؤ على تكرار ما قالته مرارا. كان هذا السبب الوحيد، الذي شرحته نجوى بقوة أمام النسوة المجتمعات، أما

بعد مغادرتهن البيت، وبقاء نجمة فقط، كشفت نجوى أمامها أن إنعام قامت أيضا بتحريض زهير الحافي على سرقة ملعقة الذهب الصغيرة، التي ورثتها عن أمها، وأن زهير جاء واعترف بنفسه لنجوى بالأمر بعد سرقة الملعقة بستة أشهر. لم يقل مباشرة بأنه من أخذ الملعقة، بل ألمح إلى أنه شاهد ملعقة ذهبية صغيرة في بيت إنعام، ولم تدرك نجوى أن زهير اعترف بالأمر، لأنه يود التقرب من العائلة، فهو من ضمن الشبان الذين وقعوا في غرام ياسمين.

كانت الملعقة الذهبية التي ورثتها عن أمها، العلامة الوحيدة التي تربطها بالماضي السعيد في بيروت، لذا ليس من الممكن أن تفرط فيها أبدا، إنها الدليل الدامغ على حياتها السابقة في "وادي أبو جميل"، على ذاك الزمن البهي الذي لم يبق منه سوى صور وأسماء وأحداث متداخلة.

لكن الملعقة الذهبية اختفت مرة أخرى، ولم تستعدها نجوى. قالوا إن ياسمين هي من سرقتها بتحريض من عماد أبو الوفا، وقالوا إن الملعقة سرقتها جارة أخرى بعد المحاولة الأولى الفاشلة لسرقتها.

الفصل الثالث

بيروت- العودة- ١٩٩٥

حسان

لم يكن هناك مفر. وضعني القدر وحدي هذه المرة أمام مسؤوليات الأخ الأكبر بعد زواج ليلى. افتقدتها كثيرا، ولم أكن أعرف أني سأفتقدها إلى هذا الحد؛ عرفت بعد غيابها كم كانت تمسك بزمام أشياء كثيرة.

انتقلت إلى الجبل، بعد أن حصلت على عمل بأحد الفنادق في منطقة "بحمدون"، والتحقت بكلية العلوم السياسية في بيروت، تلك المرحلة كانت من أكثر مراحل حياتي تعقيدا؛ أمي ازدادت كآبة، وإحساسا بالوحدة، لم تكن ياسمين مثل ليلى، ولم يكن حسن يشبهني. أختي الصغرى كانت مثالا حيا للوجودية، غارقة في أنانية اللحظة، تحلم بترف الحياة ورفاهيتها ومن الممكن أن تنفق أي مال يقع في يديها على أشياء ترى أن

من حقها الحصول عليها بأي ثمن. أما حسن فمنذ إدراكه أنه يعيش مع حكايات أب غائب، بانت في عينيه نظرات الأطفال اليتامى، تلك اللفتات الزائغة، والجائعة بشكل مطلق للحنان والاحتواء. حاولت كأخ أكبر تعويضه غياب الأب، لكنه قابلني بصمت وانزواء، وكأنه غير مقتنع بي للقيام بهذا الدور. ظل متعلقا جدا بأمي، حتى بداية معرفته بمحمد الأمير.

عاد مُحَمَّد الأمير للظهور في "دير السرو" مع موجة التدين التي وصلت إلى البلدة مع سنوات التسعينيات. خلع زي المناضل السابق، أطال لحيته، ظهر كما لو أنه لا يعرف شيئا عن أبي، تجنب اللقاء وجها لوجه مع أمي، مخافة أن توجه له أي سؤال، أن تطالبه بأي توضيح لما حدث لزوجها بعد مغادرته في ذاك اليوم البارد؛ لكن نجوى لم تصمت، كانت ترميه بنظرات حادة، وتحكي بين الجارات عن ماضيه الذي تعرف جزءًا منه.

بدأ يغزو المنطقة شيوخ وشيخات ليتكلموا مع الرجال والنساء كلاما في الدين، عن الصلاة والصيام، وأوقات الدعاء المستجاب، كان مُحَمَّد الأمير صلة الوصل بين رجال البدو وشيوخ الدين؛ وبأسلوب سلس وبسيط يطلب من أحد رجال البدو استضافة رجال الحي في بيته كي يحدثهم الشيخ عن واجباتهم الدينية، وسيكون له الأجر والثواب عند الله. لم يتجرأ أحد على الرفض؛ إذ لم يكن هناك ما يدعو للريبة، مجرد كلام في الدين مرة في الأسبوع، حلقة للرجال، وأخرى للنساء، كان من نتائجها أن وضعت البدويات الحجاب بشكل رسمي، بعد أن كن يضعن وشاحا صغيرا معقودا إلى الخلف، وصار الرجال يستمعون إلى أوامر شيخهم المحاضر

الذي كان يحلل الأشياء وفقا لرؤيته، ذات مرة حين سأل جاسر الشمري إذا كان تصدير الحشيش "حرام"، رد الشيخ بثقة بأن تجارة المخدرات إذا كانت للغرب الفاسق، فهي ليست حراما لأننا نُسهم في تدميرهم.

بدأت أمي تعاني من حصار الجارات، اللواتي يطالبنها بالمشاركة في حضور دروس الدين، ولم تكن قادرة على الاعتذار، إذ لم يكن لديها أي عذر، بل إنها في حال اعتذرت عن الحضور، فهذا يعني أنها ستصير منبوذة منهن. أثمرت الضغوط على أمي بأن غطت شعرها بإيشارب كانت تضعه في البداية كلما حضرت "الشيخة" لتحاضر بالأخوات، ثم صارت تضعه بشكل دائم، وكان أخي حسن يشارك أيضا في الحضور مع الرجال والأولاد، ويبدو متحمسا جدا من شدة الثناء الذي يناله من الشيخ المحاضر أو من مُحَمَّد الأمير نفسه. ولم تنجح محاولات الجارات في التأثير على ياسمين للانضمام إليهن، ظلت تهز كتفها بلامبالاة حين تقرع إحداهن الباب، وتدعوها للحضور قائلة: "مشغولة".

ذات مرة حين كنتُ في إجازة، استيقظنا على رائحة نيران تحاصر بيتنا، لم نعرف من أشعلها، لكنها كانت إنذارا لنا لمغادرة المكان. هب جيراننا البدو لمساعدتنا في إطفاء الحريق، وسرت شائعات بأن وكيل صاحب البيت والأرض يريد استعادتها وطردنا بعد محاولته أكثر من مرة إقناعنا بالمغادرة. قيل أيضا إن الحريق حدث بإيعاز من رفاق أبي السابقين، وقيل أيضا إن رفاق أبي قاموا بهذا الفعل، لأنهم أرادوا أن يبلغوه رسالة ما، فالبيت الوحيد الذي اشتعلت النيران من حوله كان بيتنا وسط كل البيوت المجاورة. كان الرفاق يظنون أننا على تواصل معه، وفي الحقيقة أن الرسائل

التي كانت تصل منه في زمن متباعد، انقطعت من مدة طويلة، ولم نعد نعرف عنه شيئا، سمعنا أنه مسجون في سوريا، أو في الأردن أو ليبيا، وسرت شائعة بأن رفاقه قتلوه في ظروف غامضة لأنه يعرف الكثير من الأسرار عنهم، إلا أننا لم نتبين السبب الحقيقي لاختفائه، ولا إن كانوا هم من أشعل النيران في بيتنا حقا، أو أن الحادث كله مجرد صدفة.

بعد هذا الحدث، قالت أمي إنها تفكر في العودة إلى بيروت مهما كانت الأحوال، فقد مضى على وجودها سنوات طويلة في هذا المنفى، وأن بقاءنا هنا لم يعد مجديا.

لم يكن قرار العودة إلى بيروت سهلا، فقد كنا من غير سكن، ولا مال يكفي لدفع إيجار بيت، كما أن بيت العائلة في "وادي أبو جميل" متهدم، ويحتاج لمبلغ كبير من المال لإصلاحه، لكل هذه الأسباب تأخرنا في اتخاذ أي قرار، لكن بقاء أمي وياسمين وحسن وحدهم هناك سبب لي هاجسا مستمرا في احتمال حدوث أي مكروه لأحد منهم..

* * *

في عام ١٩٩٤، حصل التحول الأكبر في حياتنا، فقد أعطى مرسوم جمهوري الجنسية اللبنانية لمن يستحقونها، وكنا من ضمن من شملهم المرسوم، عدنا لبنانيين، بعد أن أثبتنا أننا من أبناء القرى السبع، وظل أبي قيد الدرس لأنه خارج الأراضي اللبنانية.. هكذا استعدنا هويتنا المفقودة من جديد، بعد أن عشنا لأعوام بهوية ملتبسة. جيراننا البدو تم تجنيسهم أيضا، وصاروا لبنانيين مثلنا، رغم أن تغير هويتهم لم يؤثر في مجرى حياة

غالبيتهم، سوى أن جزءا منهم صار يفكر بالهجرة إلى الدول التي فتحت أبوابها لاستقبال المهاجرين.

تشكل الوعي بالهوية لدي أنا وليلى مع سنوات المراهقة، وصرنا نكرر على أمي أسئلة تقليدية، لا إجابة لها، مثل: "من أين نحن؟ لم نحمل هوية قيد الدرس. هل نحن لبنانيون أم فلسطينيون؟". أسئلة لا تملك لها نجوى إجابات شافية.

بعد سنوات، وأنا أحكي قصتي لزوجتي صولا، قالت لي: "هل تظن أنك الوحيد في العالم، الذي عاني من مشكلة الهوية، آلاف الناس يعيشون على الحدود، ويرفض المكانان الاعتراف بهويتهم، كما أن آلاف البشر يحملون هويات لا ينتمون إليها، مثلي أنا، الفرنسيون لا يعتبرونني فرنسية أصيلة، رغم أنني ولدت وعشت في فرنسا طوال عمري، والعرب لا يرون أنني عربية، في سوريا أنا فرنسية، وفي فرنسا عربية، لكن في النتيجة أنا صولا، متجردة من الهويات".

لكن ما تحكيه صولا لم يُبعد من داخلي قناعتي بأنه في مجتمع شرقي ذكوري، تكون قضية الهوية على الرجل أشد تأثيرا وعمقا منها على المرأة. ينبغي على الرجل أن يكون معروفا من أين هو، لمن ينتمي، وما هي جذوره الاجتماعية.كانت صدمة الهوية الأولى حين أحببت نسرين وتقدمت لخطبتها. وأمام تقديس الهوية، لا يوجد مجد للإنسان المجرد منها، لفرديته المستقلة، لفنه، لانتصاره لإنسانيته وذاتيته الحرة. الهوية تصنيف فردي ظاهريا، لكنها توظيف اجتماعي واقعيا.فرد مُحيت هويته، سيكون منبوذا

من المجتمع، فاقدا لشرعية وجوده. لكن ماذا تعني الهوية غير تحديد انتمائك لمكان ما، بكل أبعاده الجغرافية والتاريخية؟ الهوية هي اختذال أبعادك الإنسانية إلى عنوان يقول أنك أتيت من هنا أو هناك..وبناء على ذلك تتحدد قيمتك الإنسانية.

كان أول ما فعلته بعد حصولي على الجنسية أن استخرجت جواز سفر، كنت أحلم بالطيران للبعيد، ولم يكن لدي ما يساعد على السفر.

مفاجآت ذاك العام لم تنته، فقد عادت خالتي "ملكة" من البرازيل. لم نكن نصدق أن خالتي التي لم نشاهدها من قبل ستعود في يوم من الأيام، وأنها ستقود حياتنا جميعا وتُحول مسارها. عادت خالتي لتنتشل أقاربها الفقراء من الحياة في

" دير السرو"، قالت: إن زوجها توفي، وأنه قسم ثروته بينها وبين ولديه، وهي لم يعد لها أحد هناك، لأنها لم تنجب من يرث ثروتها، وخافت أن تمتد يد أولاد زوجها لأموالها، لذا قررت العودة والحياة معنا.

كانت خالتي ملكة الشخصية المناقضة لأمي، مرحة، مقبلة على الحياة، حكاءة، وتتمتع بذات الحس القيادي الذي امتلكته جدتي سعاد، ورغم أن خالتي تكبر أمي بعامين أو ثلاثة إلا أن ملامحها تبدو أصغر منها بسنوات، والأغرب أن خالتي ملكة بدت كما لو أنها هي التي أنجبت ياسمين، كان التقارب بينهما في الشكل الخارجي، والصفات النفسية يدعو للذهول. لاقت أختي الصغرى مع عودة خالتي دعما كبيرا في ممارسة هواياتها بالغناء والرقص. أخي حسن لم يحب ملكة، ربما لأنه كان متعلقا

بأمي، ولأن أختها الوجه المناقض لها؛ وربما لأنه أحس بتباعد ياسمين عنه، لكن في جميع الحالات لم يدرك أي منا ما كان يحدث في داخله، ولن ندرك هذا إلا بعد وقت طويل، وبعد أن يكون فات الأوان.



في البداية كانت نجوى سعيدة بعودة أختها، ورجوع العائلة إلى بيروت. كان أول قرار اتخذته ملكة كي تلم شمل الأسرة هو إعادة بناء بيت "وادي أبو جميل"، كي يعيشوا فيه جميعا، أشرفت هي بنفسها على عمليات الإصلاح والترميم.وقفت مع عمال البناء، اختارت ألوان الطلاء،واشترت أثاثا جديدا، وأخذت من عند أخيها وهيب بعض المقتنيات القديمة التي احتفظ بها في غرفته، مثل العود القديم الذي كان يعزف عليه أبوها عواد، صورا بالأبيض والأسود وضعتها في إطارات، لتعلقها في بيت العائلة، أرغيلة مزينة بالصدف، مرآة على شكل شمس أصابها الصدأ، غرامافون قديم لا يعمل.كانت ملكة امرأة متناقضة تريد البحث عن جذور ما بالقدر الذي ترتبط فيه بالحاضر بشدة، تفتخر بأصولها الكردية، بجمالها، بتجاربها في الحياة، وتغرق في الضحك وهي تحكي بثقة حكاية عن أسفارها، مغامراتها، أو عن الرجال الذين وقعوا في غرامها.

نجوى ظنت أن الزمن عاد للوراء، وأنها سوف تستعيد الماضي الذي تبخر من بين يديها سريعا، أيام وجود أمها لترعى شؤونها هي وأطفالها، وأيام وجود زوجها باسم هو ورفاقه في مجد الثورة الفلسطينية وسيطرتها على المدينة؛ في زمن الشعارات الكبرى والأحلام بالنصر والعودة لفلسطين؛ رغم أن نجوى عاشت سنوات صباها وبيروت مشطورة بين شرقية وغربية، وبينهما خط تماس ممتد من الليلكي، الحدث، السوديكو، حتى طريق الشام، لكنها كانت قادرة على التجوال في شارع الحمرا، والتنزه على كورنيش البحر، لم تكن تحس أن هناك ما ينقصها بسبب نصف المدينة الممنوع عليها.

تذكر نجوى كيف تغيرت المدينة بالكامل منذ عام ١٩٧٥، وكيف صارت هناك حدودا واضحة للموت؛ فقد كان بيت "وادي أبو جميل" قريبا من وسط المدينة الميت، الذي يشكل حدا بين المدينتين، حتى يُخيل لمن يمر من هناك أن الظلام الممتد بين الجانب الشرقي والغربي من المدينة قادر على إغراق البلد كله.

لكن المدينة الموجودة الآن، عاصمة تنهض من بين الركام، يُعاد إعمارها من جديد، في محاولة لإعادتها كما كانت؛ والعودة إليها يكشف كماً من القباحات لا تتوارى تحت الأنقاض، وركام السنوات.

في بيروت ارتاحت نجوى من الأسئلة المتلاحقة عن زوجها وغيابه، هنا لا أحد يعرفها سوى من تبقى في المبنى من الجيران القدامى، فقد هاجر معظمهم، وأتى مكانهم سكان جدد لا تعرفهم ولا يعرفونها.

بدأت نجوى تواجه معركتها مع أختها التي أرادت السيطرة على المنزل بكل ما فيه، مذكرة الجميع– في لحظات الغضب– بأنها صاحبة رأس المال، وما ضاعف الأمور سوءا هو ميل ياسمين نحو خالتها، ومساندتها لها على حساب أمها. الخال وهيب، الذي انضم أيضا إلى الأسرة، وعاد للمبيت في غرفته القديمة، لم يكن يتدخل في الخلافات التي تشتعل بين الأختين لأي سبب تافه، بل إنه بعد تكرار المشاكل بين أختيه فضل ترك المنزل والعودة إلى مسكنه قرب محل الدجاج.

كان ثمة ماض بعيد بين الأختين، ويبدو أنه مازال مستمرا، لأن ملكة تنظر لأختها على أنها كسولة وبليدة واتكالية منذ صغرها، في حين ترى نجوى أن ملكة تملك المال، وأنها تغار منها لأنها أنجبت صبيان وبنات، فيما هي عاجزة عن الإنجاب. ازداد إحساس نجوى بالحقد واليأس، وبدأت آلام العظام تداهمها، تراجعت سطوتها أمام سيطرة ملكة على شؤون المنزل، بل ربما ازداد إحساسها باللامبالاة التي تصاعدت وتيرتها في داخلها، لم ينقذها منها إلا ظهور جانو، الذي يعمل في ورشة النجارة بالقرب من بيتهم. جانو الشاب الكردي، الذي أحب نجوى في صباها، ولم تلتفت له في ذاك الزمن، أصبح أرملا وحيدا، بعد أن ماتت زوجته، وغادر أولاده الثلاثة لبنان. ظل هو في بيروت طوال سنوات الحرب، لم تتغير ملامح وجهه كثيرا مازال يتمتع ببقايا وسامة تطل من عينيه الزرقاوين وبشرته المُحمرة من أثر الشمس، بانت تجاعيد قليلة حول عينيه، شعره ضربه المشيب، وساقه اليسرى أصابها العرج بسبب شظية استقرت فيها. نجوى التي لم ترتبط بأي صلة مع جانو فيما مضى، جمعها به الآن الإحساس المشترك بالوحدة،

ومشاطرة الشكوى من الأبناء، الغائب منهم والحاضر. حاول جانو مساعدة نجوى في التقرب من حسن الذي صار أكثر صمتا وبعدا، كان يُفلح حينا في اختراق عزلة الولد المراهق، ويفشل في أحيان كثيرة.

تغيرت نجوى بعد تواصلها مع جانو؛ صارت تضحك، وبدت أكثر زهوا بأنوثتها وذاتها، لكن الحب في وقت متأخر لن يحظى برضا العائلة، وسيُعتبر خيانة.

سهريات الريس

حسان

انشغلنا جميعا في التفكير بإنقاذ ليلى من حالها الذي يزداد سوءا يوما بعد يوم.لم تكن تنام، أو تأكل، ممعنة في صمتها، تشكو من هزال شديد، وضعف شهية. عادت أختي إلى بيروت مع طفل لم يتجاوز عامه الثاني، تواجه محنة جديدة، في إصرارها على الطلاق، وتنازلها عن كل مستحقاتها المالية. شغلتنا ليلى عن مراقبة حسن، وتبدل حالاته النفسية، وميله الشديد إلى الصمت والعزلة.

أخذتُ ليلى للعمل معي في الفندق الذي أعمل به. استطعت أن أوفِر لها عملا في المطبخ، تُشارك في إعداد الطعام، كنت أعرف أن العمل، الذي تقوم به مجهد جدا لأنها تظل واقفة على قدميها تسع ساعات

متواصلة، ثم يكون عليها العودة إلى بيروت في المساء، لكنها كانت تحتاج لأي دخل مادي يساعدها في إعالة نفسها وابنها، بعد رفض زوجها دفع أي نفقات.

حين عرف الريس أن أختي تعمل في المطبخ، اقترح علي أن تنتقل للعمل في صالة الاستقبال. عرفت حينها أن الريس شاهد ليلى، وأعجبته، أصبت بالرعب حينها من تخيلي أن ليلى ستدخل ضمن دائرة اهتمام الريس.

بدأت علاقتي مع الريس– صاحب الفندق– بعد حادث الحريق، الذي أنقذته منه، حين اشتعل القسم الخلفي من المبنى– حيث مخزن الأطعمة وكراج السيارات– إثر ماس كهربائي. منذ ذاك اليوم صرت مُقربا من الريس، وصار يستدعيني في جلساته المسائية. كنت أعمل في صالة الاستقبال نهارا، وفي المساء كنت أرسم كاريكاتير لوجوه الزوار. أحيانا، أرسم تحت الطلب، وفي أحيان أخرى يثيرني أحد الوجوه ويدفعني للرسم. كنت منشغلا في الحصول على ما يكفي من المال كي أكمل دراستي، فقد تعثرت ببعض المواد في سنتي الجامعية الأخيرة.

لم يكن الفندق الذي عملت به مشبوها أو رخيصا؛ بل على العكس كان كل رواده من النخبة الذين نشاهد صورهم في صفحات المجتمع، وفي المجلات الفاخرة والملونة. يوجد فيه بار، وديسكو للرقص الغربي، ومطعم وصالة لوصلات الرقص الشرقي، وأخرى للقمار،مسبح وحديقة واسعة، وفي الليل يتوزع الزبائن بين هذه الأماكن كلها..

في الأيام الأولى، كدت أجن من المبالغ الخيالية التي تُدفع على طاولة العشاء، أو التي تُلقى تحت أقدام الراقصة. أتذكر الجوع والبرد الذي عشناه، وأدرك أن الحياة عجيبة جدا، وينبغي أن نرى منها كلا الوجهين.

لذا سيظل الريس، من أغرب الشخصيات التي التقيت بها على مدار حياتي. كان صاحب مزاج عجيب، ينشغل في بعض الليالي بمشاهدة قناة "فيولنس"، ويجبرنا نحن الثلاثة، أنا وخليل وأكرم، على المشاهدة معه. يذكرنا في البداية أن الصفوة فقط هم من يشاهدونها، إذ لا يقدر أي شخص عادي على دفع القيمة المالية للاشتراك في فك شفراتها. يتعامل الريس معنا ونحن نشاهد القناة على أنه يُطلعنا على نظريات خفية لما يحدث في الجانب الآخر من العالم، إذ علينا التخلي عن الأفكار السطحية حول الأخلاق السائدة، ومعرفة أن هناك من يمارس حياته من دون هذه المفاهيم الخانقة.

كلما كانت المشاهد المعروضة أكثر غرابة وشذوذا، يغرق الريس في ضحك، ترافقه تعليقات ساخرة. من أغرب المشاهد كان إعلان عن مسحوق الكوكايين، يظهر رجل أشقر نحيل عاري الصدر يرتدي سروالا قصيرا، عضلاته ضامرة ويبدو عليه الخمول، وما إن يشرب الكوكايين حتى تنتفخ عضلات صدره، ويسير خطوات نحو امرأة سوداء عارية وضخمة، تجلس في حزن، يقدم لها كفه فتشم منها المسحوق الأبيض، ثم تندفع في ضحك هستيري، تتحرك الكاميرا نحو جزئها السفلي لتركز على عضوها، فيظهر مكان عضوها الأنثوي، عضو ذكوري صغير يبدأ بالانتفاخ، وهي تشهق من الضحك، فيما الرجل المتضخم يقترب ليعانقها. تركز برامج

القناة كلها على الجنس المنحرف الذي تجاوز فكرة المثلية، هناك برامج عن لذة مضاجعة الأطفال، وعن آباء يعاشرون بناتهم، ويقيمون معهن في الغابات، أو في أعالي الجبال هرباً من المجتمع القاسي الذي لا يرحمهم. كنا نتابع على الشاشة فريق القناة، وهو يُحرك الكاميرا على المذيع الوسيم المتعاطف مع الأب الذي يقيم في غابات آلاسكا مع ابنته المراهقة، وكيف أن القناة هدفها خوض المغامرات كي تنقل صوته للعالم، يظهر الأب الكهل، متحدثاً باستفاضة عن حريته، وشرعية ما يقوم به، ثم تظهر فتاة في السابعة عشر من عمرها، أو أقل من ذلك، تحكي عن ذروة استمتاعها الجنسي وسعادتها الفطرية الغامرة، ينتهي المشهد بأن تخلع الفتاة ثيابها، وتتمدد على الكنبة، فيما فريق التصوير يستعد للمغادرة وهو يلوح لهما. كان يعقب هذه المشاهد، لقاءات مع أطباء في علم النفس يشرحون نظريات دقيقة عن تدمير الإنسان العصري للغريزة الفطرية، وأن الإنسان في أصله عنيف، وينبغي عليه أن يُطلق هذا العنف حتى حدوده القصوى، حينها سينتهي منه، وإلا سوف يظل هذا العنف مكبوتاً، ويؤدي إلى كل الحروب التي تقع على الأرض.

لم يكن يبدو على الريس أي نوع من الإثارة الجنسية، وهو يشاهد القناة، بل تلمع الدموع في عينيه من فرط نشوة الضحك. خليل الأصغر سناً بيننا، والأكثر نحولاً تكاد مساماته تنفجر من شدة الإثارة، يتضخم عضوه من تحت البنطلون، يدخل إلى الحمام بين حين وآخر. كنت أنا وأكرم نراقب انفعالات الريس أكثر مما ننشغل بالمشاهد التي تعرضها الشاشة. ذات مرة بعد مغادرتنا غرفة الريس، اندفع أكرم في قيئ مفاجئ،

يتخلله شتائم للريس، وللأوتيل، ولحاجته للمال، التي تجبره على البقاء في هذا المكان.

في ليال أخرى، كان الريس يأخذنا لنسهر معه أمام المسرح، وبعد أن يشرب عدة كؤوس، يطلب منا أن نرافقه إلى"الروف"، يحكي لنا عن نوع النساء الذي يعجبه. كانت تأسره النساء الضعيفات والمكافحات، امرأة بجمال لافت من طبقة فقيرة أو متوسطة، ضعيفة ووحيدة توقظ داخله كل العذابات والمتع المردومة في داخله..تبدأ الحكاية برغبة، وتنتهي باستحواذ عجيب على حياة المرأة الفقيرة، حتى يملها بعد ظهور امرأة أخرى، ولا يتجاوز زمن بقائها في حياته أكثر من شهرين. رأيت هذا السيناريو يتكرر في حياته مع عاملات نظافة، وعاملات في المطبخ، ومع طالبات جامعيات فقيرات. لم يكن هناك ما يمنع أن تتحول ليلى أيضا لرقم ضمن أرقام النساء اللواتي عرفهن.

تركت ليلى العمل في الفندق، عادت للبقاء مع أمي وخالتي في بيروت، وفيما بعد عرفت أن ياسمين ساعدتها في العثور على عمل في المطعم الذي كانت تغني فيه، وكان شرط ياسمين أن لا يعرف أحد بأنهما أختين.

تقبلت ياسمين – ببساطة شديدة– حقيقة رفضنا لها ولما فعلته ، من هروبها مع عماد أبو الوفا، ثم إنجابها ابنة، وتركها مع أمي، وفرارها من جديد لتحقق طموحاتها الفنية. رفضت أمي أن تأخذ منها أي مبلغ من المال، كانت تقول لها "انتي فلوسك حرام".

حاولت مرة واحدة أن أعيد ياسمين عن الطريق الذي مضت فيه، مرة واحدة فقط لأنها لم تترك لنا الفرصة لمحاولة أخرى. ذهبت إليها أنا وليلى، وعدنا بعد أن جردتنا جميعا من أي رغبة بالكلام أمام سهام الحقائق التي أصابتنا بها وهي تقول:

" أنتم اخترتم وما عليكم سوى تركي أختار".

حسان، أنت لم تكن اختياراتك أفضل مني أبدا، هل أحكي لك عن أفلام البورنو التي يتم تصويرها في الأوتيل الذي تعمل به... هل أحكي لك ما يدور في الغرف المغلقة، والصفقات التي يقوم بها الريس،أم أنت تعرف!

وأنت ليلى..أردتي أن تكوني قديسة العائلة هذا شأنك، لكن تذكري أني ساعدتك في العثور على عمل، وأنه لولا مساعدتي في إبعاد حميد عنك وتهديده من أشخاص أنت لن تعرفيهم، كنت الآن مازلت مرعوبة منه، ومن ظهوره وأخذه ابنك. أتركوني وشأني، انسوا أمري، وأنا سأنساكم أيضا. تذكروا أنه لولا عودة خالتي ملكة، التي تتحكم في حياتكم الآن، كنا سنبقى في "دير السرو". أنتم تعتبرون ما أفعله عهرا، لكن العهر الأكبر حين غادرنا أب لم يبال بترك عائلة وحيدة وسط الفقر والحاجة، هو هرب لأنه لم يستطع البقاء، وأنا كذلك، فلا تحاولوا محاكمتي، لأنني الأضعف.

لست على استعداد للنظر للوراء أبدا. لقد اخترت وانتهى الأمر، هناك عالم آخر غير الذي عشنا فيه، وأنا لن أعود للدنيا التي أتيت منها مهما كانت النتائج".

حسن ازداد عزلة بعد فرار ياسمين من البيت، كانت مقربة منه جدا، أكثر مني أنا وليلى؛ وبعد فرارها مع عماد أبو الوفا وزواجها منه، وغنائها في النوادي الليلية، وسماع ما يقال عنها، صار أكثر بُعدا عن العائلة. فشل في دراسته، ثم قرر التوقف عن الدراسة تماما بعد تحصيله الشهادة الإعدادية. حاولت نجوى بكل الطرق أن تثنيه عن قراره، أقنعها بأنه يريد أن يدرس الكهرباء في أحد المعاهد، وهذا ما فعله. لكنه لم ينجح فيما اختاره؛ صار يمضي وقته في الجامع يصلي، يتعلم أصول دينه الذي سينجيه من مصير العائلة، التي شملها غضب الله، كما كان يعتقد.أطال حسن لحيته، ولم يعد يصافح النساء، نظراته تحدق في الأرض تائها، كما لو أنه يبحث عن شيء ضاع منه.

* * *

يبدو من المهم أحيانا أن نعترف، أن نواجه الحقيقة، كما نذكرها، كما هي بالنسبة لنا، لكن حتى في هذه المحاولة لن نتمكن من الكشف سوى عن جزء ضئيل مما كان.

تعرفتُ إلى صولا في الفندق، الذي أعمل به، كانت عازفة كمان بارعة، أتت مع إحدى الفرق من فرنسا للعزف مدة خمسة ليال، قمت برسم كاريكاتير لها، كما أفعل عادة مع بعض الزبائن. عبّرت عن إعجابها برسمتي بأسلوب عرفت منه أن لديها خبرة في الفن. كانت صولا سمراء طويلة، ممتلئة قليلا، شعرها بني قصير، لها حاجبان عريضان، وعينان بلون قشرة البندق تشعان ذكاء، وفي بعض الأحيان تضع على رأسها عمامة

بيضاء تشبه قبعة حكيم هندي؛ ربما كانت قبعتها الملفوفة بإحكام أول ما لفت نظري إليها.

تتكلم العربية بلكنة مكسرة، فقد ولدت في سوريا، ورحل أبواها إلى باريس منذ كانت في الثانية من عمرها، أمها أستاذة موسيقى، والدها رسام، انفصل عن والدتها وتزوج امرأة فرنسية وأسس عائلة جديدة، وهذا ما لم تستطع صولا غفرانه له.

منذ أن تعارفت أنا وصولا، أحسست أنني وجدت شيئا ضاع مني منذ زمن بعيد، كنا نتكلم لساعات طويلة، نواصل الليل بالنهار،نسمع موسيقى جاز، ونردد أغنيات لويس أرمسترونغ، نتحدث عن لوحات بيكاسو وموديلياني،ونجلس على صخور شاطئ البحر فيما صولا تعزف بانسجام نادر. حين تشاركنا الفراش وغفونا سويا أدركت أن تلك الفتاة التي تشبهني في بحثها عن الانتماء ليست عابرة في حياتي. حكت لي عن إحساسها الدائم بالاغتراب؛ عن أبيها الذي تخلى عنها وعن أختها، تاركا مسؤولياته للأم.

وحكيت لها حكاية هويتي، وأبي المفقود، وأختي التي أغواها الغناء في الملاهي الليلية، حكيت لها عن أمي، عن ليلى وحسن، وأخذتها معي كي تلتقي بهم .

لم تتقبلها نجوى، في البداية، لم تحب صوتها العالي، وأسلوبها المباشر في التعبير عن ذاتها من دون أي مجاملات وصفتها بأنها: "لا تشبهنا"، لكن وحدي أعرف كم هي تُشبهنا؛ وكان هذا من بين الأسباب، التي أحببتها

من أجلها. صولا كانت تعرف ماذا تريد، وتكافح من أجل تحقيقه، شكلت لنفسها عبر سنوات مكانتها في عالم الموسيقى. كان إخلاصها لفنها يدهشني، لكن ليس هذا فقط ما أثار دهشتي بها، بل قدرتها الغامضة على الجمع بين متناقضات لا تخطر على بال، في الوقت، الذي بدت لي أنها امرأة غربية مثالية من حيث القناعات الحياتية، تكشف لي وجها آخر، امراة أكثر عمقا تجلس ساعتين يوميا لتمارس اليوغا، تقف على رأسها، تشعل أعواد البخور، تسمع موسيقى " بودا بار"، وتذهب إلى دمشق للمشاركة في حلقة ذكر ولقاء شيخ متصوف، وربما تجادلني لساعات عن الآلهة الأم، وعن دلالات اسم صولا وأثره عليها، ثم تضحك قائلة إن الأمر الوحيد الجيد، الذي منحه لها والدها هو اسمها.

صارت صولا تأتي كل ثلاثة أشهر إلى بيروت للقائي، ولما أدرك كلانا أن ما بيننا حب عميق تزوجنا، من دون أي ترتيبات مسبقة، زواج متحرر من الأطر التقليدية، لم ترتد هي ثوبا أبيض، ولم نلتقط صورا كأي عروسين، كل ما فعلناه أن ذهبنا إلى المحكمة وعقدنا قراننا بحضور أمي، وليلى، وخالتي ملكة التي أعجبتها شخصية صولا ونزعتها الاستقلالية. هكذا استمر زواجنا، وكل منا يقيم في بلد.

ثم أخيرا ، بعد أن تمكنت من نيل شهادتي الجامعية التي تعثرتُ لأعوام في الحصول عليها، بدأت صولا تحكي عن ضرورة أن نحيا سويا، صارحتني برغبتها في إنجاب طفل، وحاجتها لأن نكون معا في إطار حياة طبيعية.

كنت أحلم بالسفر، لكنني لم أفكر في الهجرة، لكن ما حدث في بيتنا

دفعني لضرورة الابتعاد لسنوات، كي يتسنى لي النسيان .

جانو يحب أمي، أو أمي تحب جانو، أكتشف الأمر بمحض الصدفة، أصاب بالذهول، أحس بالخيانة، بالغدر، كيف لأمي خداعنا طوال هذا الوقت؛ ثم أكتشف أيضا أن ليلى تعرف الأمر، وأنها تؤيد هذا الحب، وتوافق على احتمال الزواج المطروح.

كيف خانتني ليلى أيضا؟! كنت أظن أنها الأقرب إلي؛ لكن اختيارها أن تخفي عني حقيقة ما حدث بين أمي وجانو الكردي باعد بيننا.

خانتني ليلى حين دافعت عن نجوى بأن لها حق الاختيار، لكن مع من.. مع جانو!

أثور، أغضب، أهدد بترك المنزل، بالسفر وعدم العودة، لو تزوجت أمي من جانو، لكن ما هددت به، لم أقم أنا بتنفيذه، بل قام حسن بالأسوأ منه، سرق خزنة خالتي ملكة الموجودة في البيت، وهرب بكل الأموال والمصوغات الموجودة فيها. تقدمت خالتي بشكوى أمام الشرطة،وصار حسن متهما بالسرقة،تلك كانت بداياته.

حين أفكر في الأمر الآن، بعد مرور كل هذه السنوات، أدرك كم كنت متناقضا وغبيا، تراجعت أمي عن الزواج لإحساسها بأنها المتسببة فيما حدث، لكن حسن كان ينظر لخالتي على أنها ضالة، وأن سرقة أموالها حلال، كما أن ملكة من وجهة نظره هي التي شجعت ياسمين وساندتها للمضي في طريقها.

بعد أن استعادت خالتي أموالها ومصاغها بمساعدة الشرطة، تنازلت

عن الدعوة المرفوعة ضد حسن، تم التصالح، لكنها تبرأت منا جميعا، ثم غادرت البيت، ولم تعلن عن وجهتها، قالت أننا لا نستحق ما فعلته من أجلنا.

في هذا الوقت، قررتُ السفر.

طوال السنوات الماضية، ظن ربيع أن مشكلته مع ليلى في جمرة الرغبة الكامنة في أعماقه، تشتعل وتخفت حسب حالته النفسية وحاجته للانتماء لزمن صاف، الحاجة لجسدها كانت تدفعه للتساؤل عن السبب الخفي وراء ذاك الإحساس المقفر الذي ينتابه بعد أكثر لحظات الجنس توهجا، لم يكن ألما على وجه التحديد، بل إحساسا بالجوع، بالحاجة إلى المزيد، لكن المزيد لم يكن إلا نقصا محسوسا، ينتهي بخواء دائم، لأن كل جسد يركن إليه لم يكن جسد ليلى.

خاض تجربة زواج وعلاقات مفتوحة عرف فيها نساء كثيرات، ولم يجد سببا يجعله يشتهي ليلى ذاك الاشتهاء المدفون الذي يكرهه لأنه يجعله ملتاعا وغبيا.

حين عاد إلى بيروت، اتصل بها واتفقا على اللقاء في مقهى على

شاطئ البحر. كان يتأمل ملامحها. لم تتغير. ليلى هي ليلى. الوجه الأبيض الناعم، العيون السوداء المستديرة، شعرها مايزال مسترسلا على كتفيها، لا لا.. ربما صار لها ملامح أكثر نضجا من الفتاة المراهقة، التي أحبها يوما.

تحدثا لساعتين، اختصر كل منهما حكايته عند المنعطفات المؤثرة، حكى لها ربيع عن قراره بالسفر بعد اعتقاله في سجن أنصار إثر محاولته القيام بعملية في الجنوب المحتل، وبعد إطلاق سراحه في صفقة تبادل أسرى قرر مغادرة لبنان، سافر عبر قوارب الموت، من بلد إلى آخر، حتى استقر في لندن، وهناك بدأ حياته من جديد. أخبرها أنه سأل عنها كثيرا حتى تمكن من الوصول إلى رقم هاتفها، طلب أن يسمع ما حدث لها بعد مغادرته.لكنها حكت له باقتضاب عن زواجها وطلاقها، عن ابنها سامي، وعن عملها الحالي في أحد المطاعم الكبيرة.

حين غادرا المقهى طلب منها ربيع أن يمشيا معا. كانا يسيران بخفة على كورنيش البحر، هواء الشتاء يعصف بكل ما يحيط بهما، يبدو الموج وكأنه يوشك على اقتحام الرصيف بقوة، وملامسة المارة والعابرين.

في غرفته، كان الحديث ينسحب نحو الماضي، ربيع يلامس بأصابعه شعر ليلى ووجهها، حرك سبابته عند شفتها السفلى، قبلة عابرة، قديمة تنتمي للأمس تدوم للحظات، اقترب ربيع أكثر من دون أي كلمة، تراجعت هي إلى الوراء قبل أن تقول: "في يوم ما كان من المفترض أن نكون سويا.. لكنك رحلت بلا كلمة" .

لم يعلق على جملتها، ليس بارعا في الكلام عن مشاعره، حاجز كثيف

يبعده عن إحساسه الأعمق، حاجز تمنى لو ينهار فيمكنه الكلام. لم تمر كلمة "حب" بينهما، لم يقل لها حبيبتي، يدرك أنه كان أنانيا معها على الدوام، وطوال علاقتهما، لكنه حتى هذه اللحظة هو عاجز عن البوح.

ظلت ليلى تراقبه بصمت، قبل أن تبادر بالسؤال المتأخر:

– لماذا أنا ربيع بعد كل هذه السنوات؟

لم يرد.

عادت تكرر بصوت أكثر حدة :

- لماذا تعود وتصر على لقائي، نأتي إلى هنا، وماذا بعد؟ أريد أن أسمعها منك.

أجاب ربيع بحياد:

- ليس لدي رد الآن.

ابتسمت بسخرية وهي تقول:

– أنت تريدني هنا، والجنس يحدث لسببين الحب أو المتعة، وأنا أيهما !

– هذا رأيك؛ وإن كان يبدو سخيفا. هل تعتقدين أنه يناسب علاقتنا؟

أنت تقول "علاقتنا" ربيع؛ لم تقل "حبنا". أي علاقة بيننا إذن؟ أريد سماع الإجابة منك، ليس لدي مشكلة أن أكون معك، أعبر هذا الحاجز

ربيع، واجه الحقيقة. ليس من العدل أنك في كل مرة تريد كل شيء من دون أن تقدم شيئا، تريد أن تمضي إجازة ممتعة مع صحبة جيدة وترحل، أنت عاجز عن منح الحب، لكنك تريد أخذه فقط.

فاجأته تلك الكلمات الحاسمة. الحوار بدا كأنه يشبه لعبة الموت التي يشاهدها في الأفلام، رصاصة واحدة موجودة في المسدس كافية لإنهاء الحياة. كان يقف على حافة منعطفين، رغبته الحادة بها، جوعه الشديد نحوها، يقينه بأنها تدفعه لإعلان موقف ما، قد يُنهي قصتهما إلى الأبد، وهو لا يريد لها أن تنتهي.

الصمت امتد لدقائق، كانت تنظر عبر شق النافذة إلى الظلام الذي يخيم على الشارع، وكان ينظر نحوها. اقترب منها، لكنه خشى أن يلمس جسدها، فترت كل رغباته فجأة. أحسّت ليلى برغبة شديدة في الفرار، أن تعود إلى عالمها ويعود إلى عالمه. هو لا يحب المواجهات، ولا الأسئلة الشائكة التي تواجهه بها. انتهى الأمر للمرة الثانية غير ما تمنى كلاهما، حيث لم يزدهما اللقاء إلا وجعا.

حملت حقيبتها. سارت نحو الباب بصمت؛ ثم قالت له قبل أن تغادر:

– أنا أيضا أريد عبور هذه الحكاية.

سيعرف ربيع أنها تزوجت بعد أسبوعين من دون أن يدرك حقا أنها للمرة الثانية تهرب بسبب جرح كان هو السبب فيه.

تجرد

تلك القبلة، لحظة حقيقية فريدة عبرت لقائي مع ربيع ومضت بسرعة. كل ما قيل من كلمات وحوارات لم تلامس أي ذروة ولا أي جرح غائر. قبلة قصيرة اختزلت سنوات ممرورة، رائحة جسده تشبه رماد ذكريات عتيقة أعرفها. أعبر الزمن بسرعة الضوء، في اختطاف بعيد،أرجع لقبلات طويلة عرفت لذتها يوما في غرفة صغيرة في المزرعة.

الحب الحقيقي يحتاج إلى غفران عميق ليمنح الجسد تحرره، لكني لا أريد الاقتراب أكثر، هذا الحب محكوم بفناء مؤجل. وأنا أدركت أني مازلت عاجزة عن المغفرة، لي، ولربيع.

من يمنح الغفران يكون متجردا من الألم، ولما أصاب جسدي الخرس أدركت كم أنا غير متجردة بعد.لم أتمكن من تجاوز عتمة السنين، ونسيان ما كان، تجاهل خطوط رقيقة شكلها الغياب،شعيرات رمادية توشك على الحضور، ابتساماتنا التي أرجأناها لوقت آخر، رائحة روز ماري على وسادة

مهجورة لم نغفو عليها سويا، وفنجان قهوة صباحي لم يثن. الخطوات بيننا صارت ممتدة،ابتعد حلمي الأول، صورة زفافنا سويا، وتكرار طقس تقليدي منذ مئات الأعوام. تلاشى كل هذا.. لا توجد أي صورة تجمعنا معا، عدسة الكاميرا لم تلتقط انعكاس الظلال من حولنا، الزمن لم يتوقف عند حدث مشترك جمع بيننا أنا وربيع في لقطة عابرة، تجمدت الأشياء في زمنها ومضت بلا أثر، تلاشت تلك العفوية والبراءة في رؤية العالم.

كيف يمكن للأحلام أن تكون في غاية البساطة، ورغم هذا تتسرب كالماء من بين أيدينا! أردتُ في يوم ما الحياة سويا، البقاء معا، أن أعجن خبزي بيدي، أطهو حساء الدجاج، أزرع الورد في شرفة صغيرة، ومثل أية ربة بيت أشكو من صعوبات الواقع وتربية الأطفال، أن نتخاصم، نتصالح، أن أحتمي داخل جسده بشبق حر. رغبت أن نشيخ معا، وأن ازداد سمنة وحكمة؛ لكن كل هذا يبدو ساذجا جدا، وبلا طائل. رغم أنه أكثر سعادة وطمأنينة مما نحن فيه الآن.

أريد لهذه الحكاية أن تنتهي. داخل ذاتي الأعمق أدرك أنها لن تنتهي. أتراه الحب، أم الرغبة، شغف الجسد لاشباع ما حُرم منه، أم توق النفس للإحساس بالنصر! هل من المهم حقا بدء مناورة التساؤلات تلك!

كيف تكسرت كل الكلمات التي بيننا؟

متى تلاشت؟

كيف لم نعد قادرين على قول جملة عن الوجع، عن الفرح، عن الحلم. خاننا الوقت، أم خناه حين ابتعدنا!

ما من أحد يستحق التعاسة، هذا صحيح، لكننا تعساء، مثلنا مثل آلاف أو ملايين البشر الذين انهزموا وعجزوا عن الإمساك بسعادتهم.

نظرت إلى وجهي في المرآة. تأملته طويلا، عرفت كيف يترك الواقع ثقله على ملامحي.الماضي لا يحمل رائحة زهر النارنج، ولا طعم حبات الكرز الأحمر، ولا نكهة مربى الورد بالمستكة الذي كانت تعده جدتي. هناك ذاكرة أغلفة كتب ممزقة. أرى قميصا ورديا أهدتني إياه سماء ذات مرة، يلوح معلقا على حبل الغسيل أمام باب بيتنا ذي السقف الصفيحي، وفي تمايله مع الهواء يضع ليلى أخرى أمامي.

يبزغ الماضي فجأة، يُطل أبطال حكاياته من دون إرادتي.. يترك في رأسي ضجيجا، لهاثا، وحاجة إلى السكون.. لماذا عاد ربيع؟

لِمَ ظهرت سماء في عالمي من جديد؟

الانعتاق من الماضي وهم لن أناله أبدا، مهما لاح التخلص منه قريبا، لكنه في جوهره ليس إلا سرابا أبديا تنكشف حقيقته عند أول لقاء واقعي.. أما الحاضر، فإن أحداثه تترك ثقلا لا يمكن احتماله.

لِمَ حاول حسن سرقة خالتي؟

ولِمَ اكتشف حسان حكاية أمي مع جانو ؟

أسئلة لا أجد لها ردودا مقنعة، لكنها تعذبني وتترك نوافذ أيامي مشرعة للريح.

ذات نهار، وجدت سماء تجلس في الصالة الفسيحة في ردهة المطعم الذي أعمل به، بالقرب من الجزء المطل على البحر، لم تكن زبونة مثل سائر الزبائن، كانت ترتدي ثيابا رسمية للعمل، تنورة شانيل سوداء، وجاكيت رمادي موشى بخيوط فضية. بدت أنيقة، كما كانت في الصغر، شعرها ما يزال "كاريه" قصيرا، وجهها نحل قليلا، تُعلق على صدرها ملصقا يحمل اسمها، يُسهل على الزبائن مخاطبتها. يلوح القصر في ذاكرتي، تماثيل عرائس البحر، غرفة سماء، وأنا.. بيتنا القديم.. وصداقتنا، التي لم تكتمل. هل ستذكرني لو اقتربت لأتحدث معها الآن؟ ما الذي تفعله الشابة المدللة هنا؟

خلال السنوات الماضية، تمكنتُ من شق طريقي بالتدريج، في عالم بدا للوهلة غريبا عني. هل للحظ ضربات أيضا، ربما !

كان نجاحي جزءا من نجاح سلسلة مطاعم "أندلسيا"، التي تعود فكرتها لمغترب عربي، افتتح أول فرع لها في المغرب، ثم في دبي، وجاء ليكمل مشروعه في بيروت، لم أعد أعمل في المطبخ، انتقلت للطابق العلوي، حيث المشاركة في التفكير بألوان الأثاث، والديكور، واختيار الطراز المناسب، وأسماء مميزة للمأكولات في لائحة الطعام. أحببت عملي، أن أكون في الواجهة عند استقبال الزبائن ومغادرتهم، أجلس بعيدا، أراقب المسرور منهم والغاضب، السياسي المتأزم من مشاكله مع زوجته وعشيقته، ورب الأسرة التقليدي الذي يسعى لمراضاة أولاده وإغراءهم بالجلوس معه عبر دعوتهم لمكان مميز. وجوه، ووجوه، ومئات الحكايا تعبر يوميا أمامي. وجوه تجعلني أنسى حكايتي أنا، وأبتعد آلاف الأميال عن جراحي

المفتوحة، فلا يظل لدي وقت للإصغاء لذاتي.

بين حياتي في " دير السرو" زواجي من حميد، ثم عودتي للحياة في بيروت، وجوه كثيرة وتحولات سريعة تجعلني أنظر إلى مرآتي طويلا، كي أجد ليلى.. وكلما حدقت في مرآتي أكتشف كم تغيرت..

أحسست أن سنوات كثيرة ضاعت مني بلا طائل. كنت أعيد اكتشاف ذاتي والمدينة، أمشي طويلا في جولات كثيرة، أقصد الأماكن الباهظة، والأحياء القديمة، أذهب إلى السينما، إلى المسرح، أشتري الثياب، الأحذية، الحلي، أغير لون شعري، أدلل نفسي، لكن ظل هناك فراغ ما في ركن بعيد من داخلي.. فراغ مجهول أحس أنه على وشك أن يبتلعني. لم يكن يملئ ذاك الفراغ سوى احساس الأمومة، في علاقتي مع سامي، نزهاتنا المشتركة، ضحكاتنا ونحن نشاهد أحد أفلام ديزني،تساؤلات سامي اللماحة عن الحياة، ورغبتي أن تكون طفولته مختلفة عن طفولتي، أن أمنحه كل ما حُرمت منه، وأن أجنبه الآلام المبكرة، التي لابد منها.

* * *

– سماء.. ما الذي تفعلينه هنا؟

حدقت بي لدقيقة قبل أن تصرخ: "ليلى..

نشرب قهوتنا، تحكي سماء حكايتها، أحس أنها ترويها باقتضاب، لم تتزوج، أخوها الوحيد مرض بالسرطان وتوفي، لا تكشف كيف خسر أبوها أمواله، ولم هي مضطرة للعمل، تحكي فقط عن وفاته بعد عام واحد من رحيل أخيها، وهي تعيش مع أمها في بيروت.لا أسالها ما الذي حل

بالقصر، هل باعوه؟ هل مازالت هي سيدته؟ في حوارنا شيء مبتور،غائب، مفتقد، غريب، لم يكن حوارا محايدا، تمنيت لو أننا مجهولتان، لو أن الحاضر فقط أول الحكاية. تحكي سماء أنها درست في الجامعة تجارة وعلاقات عامة، وأنها تستمتع في عملها مع الناس. أحكي لها عن زواجي وانفصالي، عن حياتي مع أمي، عن ابني سامي، لم تحاول مواساتي بل كل ما قالته لي بأني لم أخسر شيئا "اعتبريها تجربة ومرت..ثم أنت صار عندك طفل، أنا لو تزوجت رح جيب طفل وأتطلق". قالت جملتها وهي تضحك فلم أتمكن من بيان جدية العبارة.

أنا أيضا لم أتمكن من مواساتها لأنها تحدثت بحياد أقرب للفتور، مثل طبق حساء بارد لا يحرص على تذوقه. ربما سماء لم تكن تريد أن أواسيها لأنها لا تعتبرني صديقة محتملة، أو لأنها لا ترغب بتذكر آلام ماضية، تمكنت من عبورها.

هل رضيتُ حينها بالزواج من ماهر حين ظهرت سماء، لأنني أحسست بأنها ستنازعني سلطتي.

سماء التي حظيت طوال عمرها بمزايا لم أحصل عليها تشبه قطعة تشيز كيك بالفراولة، لديها فرادتها الخاصة في كل شيء، مازالت تتحدث بثقة، رغم ظلال حكايات كثيرة لم تبح بها وتختبئ خلف ملامحها المبتسمة، تظهر من جديد، تذكرني بالماضي بالمسافة التي كانت بيننا.

لماذا خشيتُ وجودها، أن تنتزع سلطتي التي بنيتها خلال أعوام ثلاث من عملي في إدارة المطعم؟! وكنت مخطئة لأن سماء كشفت لي بعد أشهر

من العمل بأنها تخطط للهجرة إلى أميركا عند أحد أخوالها، وبالفعل لم يستمر وجودها في العمل سوى عام واحد، أمضته برفقة شاب أشقر، وسيم، يركب موتوسيكل حديث، يأتي لاصطحابها في نهاية الأسبوع بعد انتهاء ساعات العمل، تصعد سماء إلى الموتسيكل خلفه، تشبك ذراعيها حول وسطه، ينطلقان معا.. وصوت جمل ضاحكة تتناثر في الفضاء، فتشيع البهجة.لم تعبر حياتي مثل تلك الخفة اللذيذة، التي تجمع بين هشاشة الفرح ووعد بنشوة مؤجلة.

في ذاك الوقت،كنت أواجه متاعب الحياة في بيتنا،لم أعد أريد سوى الاستقرار في مكان خاص، لا أسمع فيه أقوالا وحكايات وآراء في معيشتي، وطريقة تربيتي لسامي، ووقت نومي، وصحوي، ذهابي، وعودتي. بعد تجاوزي الثلاثين تراجعت من داخلي حدة الأسئلة، والتعلق بالأمنيات البعيدة، صرت أبحث أكثر عن الواقع. أريد بيتا لي ولابني. بيت لا أسمع فيه مشاجرات أمي وياسمين عبر الهاتف، لأنها تأخرت في زيارة ابنتها نايا. بيت لي الحق في أن أدعو إليه من أشاء، ومتى أشاء.

التقيت ماهر بعد ثلاثة أعوام من انفصالي عن حميد، كان يعمل معي في ذات المطعم، هو شيف مشهور قادم من إسبانيا، مُطلق، في عقده الرابع، ولديه ابن يعيش مع أمه في إسبانيا. في الوقت الذي تعارفنا فيه لم تكن لدي أحلام كبيرة، كنت ناضبة من التمني. شاركني هو أحلامه؛ كان من الطبيعي أن أتوهم أنني جزء منها، لكن حقيقة الأمر ليست كذلك، ماهر كان لديه إطار لصورة ما، ويبحث عن الصورة المناسبة لذاك الإطار.

كان طموحا جدا يحلم بتكوين مشروعه الخاص، وكنت النموذج المناسب، الذي يساعده في تحقيق أحلامه، لا أعرف إن كنت أحببته، فقد كانت موازيني مختلة، كنت أبحث عن سند، وهو تمكن من أن يسيطر علي تماما، أقنعني بأن أحلامه هي أحلامي، وأن مطعم "أندلسيا"، الذي سيكون شريكا فيه، هدفا مشتركا لنا. كنت حينها أعاني من هزيمة كبرى، عدت أنا وسامي للعيش مع أمي في بيتنا في " وادي أو جميل"، النكبات العائلية تحيط بي من كل اتجاه، حسان غادر إلى باريس، ياسمين تركت ابنتها نايا مع أمي، وانطلقت إلى عالمها الفني، وفي كل يوم هناك فضيحة جديدة تتعلق بها. حسن لا نعرف عنه شيئا، نسمع أنه في العراق، ويقال إنه في طرابلس، وأنه انضم لحزب "مسلمون" ويقولون إنه مع جماعة "لبيك يا رسول الله"، لكن لا أحد يعرف حقيقة مكانه، خالتي ملكة ابتعدت عنا وسمعنا أنها أغرمت بشاب أصغر منها وتسكن معه في الجبل، وأنا بقيتُ أعيش مع نجوى، أواجه أحزانها وأوجاعها الكثيرة، وأراقبها وهي تربي نايا، وأذكر كيف كانت تربيني. ضعفت نجوى، لم تعد تلك المرأة القوية، التي تقدس التعليم والأخلاق، كسرها الزمن والمرض، أبيض شعرها الأحمر وبانت التجاعيد في وجهها، جمالها اللافت تلاشى خلف نظرات مضطربة، وآلام مستمرة عرفت طريقها إلى جسدها الذي أصابه الضغط والروماتيزم.

ياسمين تأتي بين حين وآخر لرؤية نايا التي لم تكن تميزها، وكانت تناديني أنا "ماما". عند قدوم ياسمين إلى زيارتنا يحدث انقلاب في الشارع، تمنح المال للجيران، وتعطعي العطايا لكسب الود، ترحب بجميع الجيران الذين يطرقون بابنا حين تكون موجودة. حريصة على رؤية الإعجاب في

عيون الجميع، طوال عمرها ظلت تهتم بصورتها أكثر من اهتمامها بأي شيءٍ آخر.كانت ياسمين بعد شهرتها تحتاج إلى عائلة تتشارك مع أفرادها الظهور في الصور والمناسبات الاجتماعية، ولأن أمي رفضت الظهور معها في أي مناسبة فقد استعانت بخالتي ملكة، وبسبب شبه الملامح بينهما تركت الأقلام تكتب أن خالتي هي أمها، هكذا حصلت أختي على أم أكثر ملائمة للدور من أمها الحقيقية.

ماهر زوجي كان أيضا من ضمن المعجبين بياسمين، يرى أنها ذكية ، جميلة، طموحة، ومثل سائر الرجال ينظر إلى جسدها على أنه المثال المجسد للأنوثة، في البداية كنت أظن أن اعجابه بأختي عابر وطبيعي نتاج حياته لسنوات في أوروبا، لكن فيما بعد لاحظت نظراته الراغبة بها، لم أعرف أي لعبة كانت تلعبها ياسمين معه في دلالها عليه...هل رباط الدم أقوى من أي رباط آخر، كما يقال، لست على ثقة من هذا، لأن ياسمين كانت تعرف أنها تؤذي مشاعري. لماذا لم أشعر بغضب من نظرات ماهر لها، هل لأني أعرف أن كلانا اختار الآخر لأنه يحتاجه في هذه المرحلة من تاريخه، أم لأني في أعماقي لا ألومه للوقوع تحت سحر ياسمين وفتنة إغوائها، الذي يُحير الحواس، ألوان كثيرة في ثيابها، شعرها، إكسسواراتها، أحذيتها، عطورها، الأصفر المشع في تيشيرت قصير يكشف البطن، يتجاور مع البرتقالي والأخضر الفاتح، مزيج يشبه طبق فاكهة استوائية، تفوح منه رائحة البابايا والمانجو.

كثيرة هي المرات التي قلت فيها أني مللت من استمراري في العيش، ومن القيام بالمهمات ذاتها كل يوم، أدرك في أعماقي أن هناك ما هو مفقود

في علاقتي مع ماهر، لم توجد بيننا أبدا تلك الخفة التي شاهدتها بين سماء ورفيقها قائد الموتسيكل، ولم أعرف معه متعة الاستغناء عن العالم والاكتفاء بشخص واحد، لكن الواقع اليومي بيننا لم يكن سيئا، حواراتنا في معظمها تتركز حول العمل،كان يعامل سامي بلطف، وربما حينها كان هذا أكثر ما يعنيني.

كثيرة أيضا المرات التي بكيت فيها، ورغبت بالبقاء في سريري، وألا أذهب للعمل في أندلسيا، لكن حاجة سامي لي، وضغط ماهر علي للتواجد في المطعم تجبرني على غسل وجهي وارتداء ثيابي ووضع زينتي لأكون في أجمل شكل، لكن كل شيء كان كذبة، مجرد كذبة مثل حبات الفشار التي يصدر ارتطامها بالغطاء أصواتا تنذر بقرب النهاية، وإن لم نطفئ النار سوف نشم رائحة احتراق.

ثم جاء زياد. وكان ظهوره السبب في خروجي السريع من إطار الصورة.

في المرة الأولى، التي جاء فيها زياد إلى "أندلسيا"، سألته:

- بدك تشتغل، صالة أو مطبخ.

رد باقتضاب:

– مطبخ.

هذا الاختيار كان قليلا جدا بين جميع من يأتون للعمل في المطعم، معظمهم يفضل العمل مع الناس، والحركة بين الطاولات، فيما بعد عرفت

أن زياد يدرس في كلية الفنون الجميلة في الجامعة اللبنانية، وأنه يتيم الأب، أمه من الجنوب، ووالده فلسطيني عمل أستاذا للغة العربية في مدارس "الأونروا"، ثم مات فجأة بسكتة دماغية حين كان زياد في الثانية عشرة من عمره. كان يتكلم عن والده بحب كبير، لطالما غبطه عليه. يصفه وهو يقرأ أشعار محمود درويش ، أو وهو يحكي عن فلسطين. كنت أغبطه كثيرا على تلك الذكريات الحميمة مع أبيه. كان انتماء زياد محددا للبنان يقول إنه لم يعرف وطنا غيره ينتمي له، وأنه رغم كل معاناته في النظر إليه كلاجئ، إلا أنه ولد وعاش هنا، ولا يفكر بالرحيل عن بيروت، المدينة التي يحب.

تعلم زياد مساعدة أمه في الطهو، فقد ظلت طوال عمرها تورد وجباتها للمطاعم. كان يساعدها في إعداد التبولة، وتجهيز الفتوش، واللحمة بعجين وأقراص الكبة. خلال مروري اليومي على المطبخ لأشرف على العمل، كنت أراقبه وهو يعمل في صمت، شاب أسمر، نحيف، طويل، شعره أسود غزير يربطه إلى الخلف، لا يتكلم مع أحد، ولا يختلط بالآخرين، نتبادل النظرات بصمت، وأحاول ممازحته بالتعليق على ما يفعله، لكنه يرد باقتضاب مع نظرة خجولة. ولم أخمن أن الشاب الصامت والخجول، سيتكلم يوما .زياد كان في جانب منه يذكرني بنفسي، لكن أي "أنا" تلك التي تلوح لي كلما رأيته!

بعد مرور شهرين على عمله في "أندلسيا"، وفي يوم الكريسماس، أحضر لي علبة صغيرة فيها وشاح أخضر، قال لي إنه لاحظ أنني أحب اللون الأخضر، ثم مضى مبتعدا، كانت هذه المرة الأولى، التي تحدث فيها معي بشكل منفرد .

بعد يومين من هذه الحادثة، في المساء، حين كنت أغادر المطعم، وأقف بالقرب من سيارتي، اقترب مني، وقال لي: "أنا رح فل.. رح أترك الشغل ..أنا بحبك، ما فيني ضل"، ثم عبر الشارع مسرعا، بدا لي مثل ظل وهمي غير حقيقي، وكأن جملته ظلت معلقة بين العتمة والبحر، لا تطفو على السطح، ولا تغوص في الأعماق.

كنت أقود سيارتي، وفي داخلي إحساس بالصدمة، كم مضى علي منذ آخر مرة فكرت فيها بالحب..

أشباح جديدة



حسان

أمضيتُ عامي الأول في فرنسا أصارع اللغة، وأواجه أشباح البرودة.

الحياة معقمة جدا هنا، وباردة إلى حد لا يمكن احتماله. كنت أجلس في البيت لساعات طويلة، أفكر بأيامي في بيروت، وفي عملي مع الريس، في جامعتي، التي لم أستمتع بسنوات الدراسة فيها كأي طالب، لأنني كنت مطالبا بالعمل لأنفق على نفسي، وعلى أسرتي. أفكر بأمي، بليلى، بحسن، بقرار السفر.

والآن..لا شيء، سوى دروس اللغة والفراغ، أنتظر عودة صولا في الليل، وفي النهار تنام هي لساعات طويلة. كنت عاجزا عن العمل طالما أنني لا أعرف اللغة، ما الذي سأفعله، أنا أرسم الوجوه، الكاريكاتير،

أكتب الشعر، وقصصا لا أفكر في نشرها، لكني مارست أعمالا كثيرة أخرى: في سوق الخضار، في مطعم عربي، في معرض للسيارات؛ قبل أن أنتقل للعمل المقدر لي ممارسته.

ساعدتني صولا كثيرا، كانت تكتب لي بيدها دروس اللغة، تترجم قصائدي، وتعرفني إلى أصدقائها، كانت فخورة بزواجنا، تحكي للجميع عن لوحاتي وموهبتي، وكنت أندهش حين تقدمني لهم كفنان، لأنني لم أكن أرى نفسي كذلك. أما أصدقاؤها الفرنسيون فقد كان اهتمامهم بي يتضاعف حين أتكلم عن الفن، عن الرسم، عن الموسيقى، عن الكتابة. حينها أحس بأنني أشبههم، وأنهم يشبهونني، ونحن نحاول التواصل بمزيج مختلط من اللغات، غايتها واحدة.

تحملتني صولا بصبر، وكنت سريع السأم، أتركها في بعض الأحيان لساعات وأمضي للسير قرب النهر. كنت أفكر ماذا أفعل هنا؟ لِمَ أنا موجود في فرنسا، وفي ذات اللحظة يواجهني سؤال آخر: ولِمَ ستعود إلى لبنان؟ هنا أنت مع زوجتك، أتيت لتؤسس عائلة وتحيا هنا، تبدأ من جديد، لكن هل حقا يشغلك هذا الأمر، أم أنك وافقت عليه لأنك تحب صولا؟

في فرنسا اكتشفت معنى آخر للهوية. لم يعد ينبغي اختراع قصص وهمية عن تاريخ العائلة. كنت هناك عربيا فقط، يصارع أشباح وجود جديد ولغة غريبة لا يعرفها، عاجز عن التعبير عن نفسه، وعن الإجابة على أي سؤال لو استوقفه أحد المارة. لم أعد أصارع كيانات ثقيلة تتحداني بوجود

واضح ومحدد، غالبا ما يكون طائفيا يقاتلون بشراسة من أجله. لم أعد أواجه السؤال التلقائي في لبنان " أنت من وين؟" والهدف منه الفرز الطائفي السريع.

هل كانت أزمتي في الانتماء أم الهوية؟ هذا السؤال ظل مشرعا في وجهي لسنوات طويلة. وفي فرنسا عرفت الجزائري الذي ولد في فرنسا، ويحمل في داخله هويتين، عرفت التركي والصربي والأميركي الأسود، عرفت الكثيرين الذين يشكون دائما بانتماءاتهم أنها ليست صافية تماما.

لم أكن وحدي، وما كنت أفكر به عن هويتي المركبة راود أفكارهم جميعا، بل ربما تعرضوا أكثر مني لمواقف فيها كثير من العنصرية.

في الشهر الأول من وصولي فرنسا، عاودتني الأحلام بأبي، لكنها أحلام مختلفة أكثر دفئا، وأقل مأساوية. في الماضي كنت أراه في أحلام مؤلمة تنتهي غالبا بركضي ورائه لمسافات طويلة، ثم سقوطي من مكان مرتفع، لكني توقفت عن الحلم به منذ سنوات، وهذا هيأ لي محاولة للنسيان؛ لأن تلك الأحلام كانت دائما تستدعي في داخلي سؤالا واحدا: هل هو ميت أم حي؟ ولو كان حيا هل هناك ما يمكنني قوله له؟!

في الماضي كنت أتخيل حوارات طويلة أجريها مع أبي الغائب، ليس لدي ذكريات جيدة معه،نعم.. يمكنني مواجهته بجرأة الآن بعد أن كبرت، كنت أنوي كشف قناعه أمام نفسه، ومواجهته بضعفه وتخاذله، بنكران أبوته، ما فائدة أبوة منقوصة؟! توقفت عن هذه الحوارات منذ سنوات طويلة عندما وصلت لقناعة أننا لم نعد بحاجة له، وأن دوره في حياتنا

انتهي، منذ أن واجه كل منا مأساته الشخصية بشكل منفرد، أو مستند إلى تعاطف تعوزه القدرة على الفعل. مضت حياتي مع أب مجهول الهوية والمصير، وحين حصلت على الهوية بمحض صدفة تاريخية أو سياسية على وجه الدقة، ظل سؤال الأب الغائب يجبرني أن أقف على حافة التشظي متأرجحا بين مصير ومصير، أنا الذي كنت أود التجرد من فكرة الهويات، والانتماءات، والجذور الضائعة، وقفت وجها لوجه أمام قاع كينونتي لأعرف من أنا.

أصدقاء صولا يصفقون لي حين أنطق جملة كاملة باللغة الفرنسية، أدرك حينها أنني عربي، من جنوب لبنان، قادم من بيروت وعشت في "دير السرو"، أرتبط يقينا بالبحر وبشوارع بيروت العتيقة، وبهوية شكلها المكان دون وعي، كنت كما لو أنني أمارس دورا على المسرح. دور وضع لي منذ البداية، ولا يمكنني التمرد عليه، لكني لم أدرك حتى الآن لِمَ تكون معاناتي بسبب مجيء أبي من مكان ما، من أرض متنازع عليها، ولِمَ يظل النزاع قائما لأجيال من دون حسم. في فرنسا التقيت بمن ولدوا مثلي من أبوين ينتميان لأكثر من مكان وهوية، لكنهم لم يعيشوا معاناتي التي تبدو محض معاناة عربية.

وفي فرنسا أيضا سأحصل بعد ثلاثة أعوام على الجنسية الفرنسية لأصير مواطنا أوروبيا.

من "دير السرو" إلى بيروت، ومن بيروت إلى فرنسا، أنا العربي المتشبث بثقافته الأصلية مخافة التيه، لكن كل هذا وهم، الغربة تقتحم

الروح مع ذرات الهواء المشبعة بالحضور الكثيف للمكان الجديد. أنواع الجبن والنبيذ لا تحمل مذاقا غريبا فقط، بل تكشف حكايات لا أعرفها، وحمى الثقافة المحمولة في داخلنا لن تلبث أن يصيبها الفتور مع كل صباح.

* * *

ثمة مسافة بيننا، لا أذكر متى بدأت في الوجود؟

ليس منذ مرضت صولا، وانتفخ جسدها لأشهر طويلة، من دون أن نعرف السبب. في تلك المرحلة، أدركت كم هو الحب بيننا عميق. يوم صارت الحياة بالنسبة لها لغزا، لأن الطب عجز عن منحها علاجا لعلتها. كانت روح صولا تذوي وجسدها يستمر بالتضخم، لائحة من المأكولات الممنوعة عليها الالتزام بها، تجارب متنوعة من الأدوية التي لا تحمل وعدا أكيدا بالشفاء.

هل تلك المرحلة هي التي حمت علاقتنا من السقوط التام، من الفراق العبثي، أم أنني أحمل في داخلي نواة الهروب التي ورثتها عن أبي؟!

لكن صولا تغيرت أيضا بعد رحلة المرض، وإدراكها أنها عاجزة عن الإنجاب، صارت مهووسة بالأطفال، بالحصول على طفل لها بأي طريقة.

لم تعد قادرة على الاكتفاء بالحب الذي بيننا، أرادت المزيد؛ ما لا يمكنني منحه، وفي هذا الوقت جاءتني فرصة الانتقال إلى لندن، للبلد الذي أحببته منذ أن زرته أول مرة في رحلة أنا وصولا. وجدت لندن مدينة أليفة أكثر من باريس، أحببت العدد الهائل من الغرباء الذين ألتقي بهم في الشوارع، وفي محطات المترو، كما لم أكن أواجه عقدة اللغة هناك.

تعرفت إلى مجموعة من الشبان العرب الذين يعملون في الصحافة في أول قدومي إلى فرنسا، عرضت عليهم رسومات الكاريكاتير التي أرسمها، ولم أخمن يوما أن تلك السهرات الليلية والحديث عن الفن والسياسة والغربة، سيؤدي لأمر ما فيما بعد.

تلقيت عرضا للعمل في صحيفة جديدة، وفي تلك الأثناء قررت صولا أن تتبنى طفلا، واعتبرت أن موافقتي على السفر هو تخل عنها.

لكن في الحقيقة، كنت أخرج من دائرة صولا من دون أن يدري كلانا السبب، صارت بعيدة عني، تمضي نهارها في زيارة ملاجئ الأيتام، وفي الليل تذهب إلى عملها في الحفلات التي تشارك بها مع الفرقة. لطالما سافرت صولا وبقيتُ وحيدا، لكني لم أكن أحس بأنها بعيدة، لكن فيما بعد حين رفضت أنا أن نتبنى طفلا، وأصرت هي على ذلك، وحين أحضرت الطفل الأفريقي إيشورا ليعيش معنا، بدا أن المسافة بيننا تزداد يوما بعد يوم.

لم ننفصل رسميا، لكنني غادرت إلى لندن، وبقيت لأشهر أتلقى اتصالات ليلية منها، تسألني: "كيف وصل بنا الحال إلى هنا؟"

وكان ردي دائما: " لا أعرف".

حقا لم أكن أعرف. كيف أوشكنا على الوصول لطريق مسدود، لكن أيا منا لم يرغب في وضع نقطة النهاية.

الفصل الرابع

بيروت ٢٠١٢

حسان

أنتَ تحاول مواجهة ذاتك وكتابة الحكاية، لكنك عاجز عن الكتابة، كما عجزت في وقت سابق عن الرسم، عن إكمال لوحاتك، التي ظلت معلقة بلون غائب.

دائما تحس أنك مازلت عند البدايات، رغم كل لوحات الكاريكاتير، التي رسمتها، رغم كل التعليقات الساخرة التي ذيلتها باسمك، إلا أنك مفصول بسنوات ضوئية عن مرادك الحقيقي، كتابة حكايتك أنت، واختيار ما تود البوح به.

دائما تفكر، ماذا لو أنك لم تولد، ماذا سينقص هذا العالم ؟! بعض اللوحات، وربع صفحة يومية في جريدة. ظللت لسنوات ترسم بريشتك خطوطا ساخرة على الصفحة البيضاء، وتترك تعليقات مُرة عما يجري في

البلدان العربية. رسمت الحرب، وأب غائب، وعائلة تجلس في البرد حول المدفأة في غرفة ينيرها قنديل الكاز.

مهما غبت وعدت تجد الأشياء كما هي. عشت دائما على الحافة، تواجه عجزك في الحفاظ على توازنك كي لا تسقط هنا أو هناك. إلى من تنتمي أنت! وهذا البلد، الذي ولدت وعشت به، وحملت هويته بعد سنوات طويلة لا تجد ذاتك على أرضه، ألعاب السياسة والطائفية تطغى على أي احتمالات بالأمل. هل تذكر ! لم تتزوجك نسرين لأن أباها رفض تزويجها لشاب يحمل هوية قيد الدرس، لشاب بلا هوية، غير معروف من أين جاءت عائلته من لبنان أم من فلسطين، وأين هو أبوه، الذي اختار المضي بعيدا.. قلت له: إنكم من الجنوب، فهز رأسه في صمت، ثم قال:

– أنا بدي أولاد ابنتي يكون لهم ضيعة، وعيلة ..

لم يكمل عبارته ليقول لك: "وجد يفتخرون به.. لا جد مجهول المصير".

لم تقل له إن أباك اختار الانتماء لبندقيته، لم تقل له إنه ليس هناك أصعب من أن يختار أب الابتعاد عن أطفاله بإرادته!

بعد هذا الحوار بشهر واحد، تزوجت نسرين من رجل آخر، رغم محاولتها تحدي سلطة والدها، إلا أنها أجبرت على الزواج من أحد أقاربها.

سامحتها،لأنها كما الجميع يبحثون عن الأمان في الثوابت المعروفة. لم تدرك إن كانت أحبتك أم لا حتى لقاءك مع صولا ومعرفتك الحب الحقيقي، أو ربما تكون صولا أحبتك لأن حكايتها تشبه حكايتك.

أنت أيضا اخترت السفر كي تكون غريبا، كي تحسم الأمر لصالح الغربة، أفضل من البقاء في وطن لا أنت غريب فيه، ولا أنت من أهله. في لندن وجدت ذاتك، كنت غريبا، مثل مئات الوجوه الغريبة التي تراها في محطات المترو، لكنك لم تكن مختلفا عنهم، كنت تشاركهم غربتهم، ويشاركونك غربتك. وها أنت هنا الآن، في بيروت، في مدينة تحبها بالقدر الذي تفر منها، مدينة لها وجهان، تداري وجهها القبيح، تُجمله، تبني الأبراج على الشواطئ، والمنتجعات الخاصة للأغنياء، مشاريع، واستثمارات، مقاه، مطاعم، تعزل البحر عن الناس، تحتل الشاطئ الحر والمفتوح ليصير خاصا ومملوكا. هل هذا فقط ما تغير في المدينة؟ أنت تعرف أن الطائفية تزداد، والبلد مهيئ دوما لحرب ما، وأن جنرالات المال والسياسة وأمراء الحروب متحدون دائما.



أمام طاولة الطعام، جلست نجوى على رأس المائدة، جلس حسان إلى يمينها. ليلى إلى يسارها، وبجانبها ابنها سامي، ونايا ابنة ياسمين.

تراقب ليلى انفعالات أمها، وفرحها بعودة ابنها البكر من السفر. نجوى تتحول إلى كائن آخر، قادر على الابتسام والضحك، والتسامح، حين يتعلق الأمر بحسان، لطالما فكرت ليلى بهذه الطريقة فيما يتعلق بالعلاقة بين أمها وأخيها.

تناولوا الطعام، وهم يتحدثون في موضوعات عامة عن بيروت ولندن، عن الوضع الأمني، وعن الثورة في سوريا. عند وصول الحديث إلى هذه النقطة، سكتوا جميعا، ثم سأل حسان عن أخيه حسن، وإن كان هناك أي أخبار عنه. هزت نجوى رأسها بالنفي، ثم قالت: " من ٣ شهور ولا خبر.. ما منعرف إذا ميت أو عايش، ولا مين نسأل عنه".

لم يأت أحد على ذكر السبب الفعلي لقدوم حسان من لندن، أرجأت ليلى الكلام في سائر التفاصيل، بل ربما لم ترغب في التطرق إليها أصلا.

رن جرس الباب، أطلت ياسمين بقامتها الفارعة، وفستانها الملون وشعرها الغجري المتمرد، تسبقها خادمة فلبينية تحمل مشتروات كثيرة، اندفعت نايا، ابنة العاشرة إلى حضن أمها التي ضمتها قليلا، وهي تقول: "لحظة نايا بدي سلم على خالو.. شوفي شو جبتلك أنت وسامي".

تبادل حسان وياسمين عناقا خفيفا، كان ثمة إحساس بالتوتر ينتاب ليلى مع قدوم أختها في كل مرة، تحس أن ياسمين منسجمة مع ذاتها وأنها أخذت من الحياة كل ما تريد. سألتها:

– إمتى مسافرة ليلى؟

– يمكن الأسبوع الجاي.

– إن شاء الله خير أنا حدك إذا بدك أي شي.

تمتمت ليلى بكلمة "شكرا"، وهي تخفض رأسها وتثبت نظراتها على السجادة الخمرية.

ظل حسان صامتا ينقل نظره بين أختيه، ويحس بمدى تناقضهما، شكلا ومضمونا. أحس بأنهما مثل الليل والنهار. ليلى بشرتها بيضاء، وشعرها أسود قصير، وجهها خال من الأصباغ، نحيلة، ذابلة، هالات سوداء حول عينيها، ترتدي ثوبا أسود يمنحها نوعا من السحر الغامض.

أما ياسمين فثمة صخب دائم حولها، فستانها تختلط فيه ألوان حارة وباردة، شعرها مموج طويل يصل إلى ظهرها، وجهها مزين بمكياج متقن.

توجه بكلامه إلى ليلى قائلا:

- أنت قوية ليلى.. قوية، كلنا منعرف هالشي..، وهالمرة كمان رح تكوني قوية.

هزت ليلى رأسها، وهي تقول:

- هالمرة مش قصة قوة وضعف أبدا، هالمرة مواجهة مع المرض.

ساد صمت ثقيل، قبل أن تقطعه ليلى موجهة كلامها إلى حسان:

- حابة أطلع على دير السرو قبل السفر، شو رأيك تجي معي.

- إيه أكيد.



رجوع



غادرت "دير السرو"، وعدت لتجد كل الأشياء، التي ينبغي تغييرها ما تزال على حالها، الأرض غير مسفلتة ومليئة بالوحول، التمييز الاجتماعي ضد البدو مازال على حاله، رغم حصولهم على الهوية اللبنانية، فقد ظل يُنظر إليهم على أنهم "عرب"، الأطفال يذهبون إلى المدرسة في المرحلة الابتدائية فقط كي يتمكنوا من القراءة والكتابة والحساب، والرجال يعملون في نقل الخضروات، وفي ورش البناء، وفي الحقول الزراعية في المناطق المجاورة، والنساء ينظفن البيت، ويعتنين بالأطفال ويصنعن المؤن لبيعها لنساء بيروت.

يبدو كما لو أنه مضت مئات السنين على مغادرتك، ورغم هذا لم

يتغير شيء، ازداد عدد البيوت في "دير السرو"، بيتكم لم يعد له وجود على الإطلاق، ولا فيلا جورجيت، أعمدة الدير ما تزال تخفي تحت أنقاضها حكاية دراكولا، وروح صديقك فاضل تهيم في المكان. الطرقات لم تتغير، ولم تصبح أكثر اتساعا، ربما صارت للبلدة طرق فرعية، إلى جانب الطريق الرئيسية، أما الأراضي الريفية مازالت جرداء، في الشتاء تذروها الرياح، نائية ومهجورة، تجعلك تحس بالرعشة حين كنت تمر بالسيارة أنت وليلى عائدين من زحلة، ويد ليلى على المقود تحاول السيطرة عليه مخافة الانزلاق. لم يعد للجسر أي وجود، نهر "غزيل" يبدو ممتدا يقسم الأرض إلى ضفتين، كان يخيم الغجر إلى جانب ضفة منها في يوم ما، وكنت تأتي إليهم لتغازل هويدا التي اكتشفت جسدك لأول مرة. في ذاك الوقت كنت تحب نسرين، لكنك لم تقو على مقاومة نداء الرغبة في جسد هويدا الفاتن، هي التي دعتك لزيارة خيمتها ليلا، وأنت بكل جرأة ذهبت. كان جسدها بضا، وشعرها ينقسم إلى جديلتين تتجاوزان خصرها، في خيمتها شدتك نحوها وهي تسألك إن كانت هذه هي المرة الأولى، ولما أومأت لها بالإيجاب، ضحكت بخلاعة وهي تقول أنها ستعلمك كل شيء.. هويدا كانت معلمتك الأولى لسحر البطء وفنونه مع الجسد. الفنون التي علمتك إياها، هي التي ستجعل صولا تحبك.

صولا، التي رأيت فيها أول مرة، مزيجا من نسرين وهويدا، كانت تشبه نسرين شكلا، وتتصرف بجرأة هويدا.

في "دير السرو" عرفت أن نسرين طُلقت من زوجها بعد وفاة والدها، وأن لديها طفلين، وأنها ورثت قطعة أرض قررت أن تبني عليها مدرسة.

حين شاهدتها بدا كأن زمن الفراق لم يكن، تلك النظرة في عينيها جعلتك تستعيد الماضي كله، لكن هل الماضي يعود حقا!

خيالات حب بفرق توقيت



فتحتُ عيني.. يواجهني سقف المستشفى الأبيض، كرهت هذا اللون الجيري الذي دخل حياتي رغما عني، كان في الغرفة ضوء خفيف. يواجهني ليل كثيف ألمحه من شقوق ستارة النافذة. ليل لا أدري كم سيطول. زياد إلى جانبي، يجلس على حافة السرير، يتأمل وجهي بحزن.

لماذا تذكرني ملامح زياد بوجه ربيع حين كان في مثل سنه؟ لماذا أتذكر ربيع الآن؟ ما هذا الهذيان!

أرفع جسدي قليلا لأعتدل في جلستي، تختلط في أنفي رائحة السبيرتو مع الأدوية ورائحة تعرقي. يا لبشاعة الواقع! ما الذي يفعله زياد هنا؟ ينظر إلي بحب، بشفقة، بتعاطف! لا يمكن وأنا في هذه الحال أن أفسر

معنى نظرته.كم يستفزني وجوده!

"على شو عم تتطلع.. شكلي بشع، وريحتي مش حلوة، أنت شو بتعمل هون..كل شي حيختفي.. ما رح يضل في شعر عندي ولا شي.. فل من هون فل..".

لم يرد. قام زياد وقفل باب الغرفة بالمفتاح، ثم اقترب وجلس بجانبي على حافة السرير، طوقني بذراعه اليسرى، ومال برأسه على رأسي، وهو يتحسس شعري ووجهي، ويوشوشني في أذني:

– لأني بحبك.. بس هيك.

– ما ضل في وقت للحب.

– لا في وقت.. دايما في وقت للحب.

– بيننا فرق توقيت زياد.

طوال حياتي لم أمتلك الثقة التي يمتلكها زياد في الحب. ظل جالسا إلى جانبي، احتضنني بقوة، وهو يربت على كتفي قائلا: "اهدي ليلى، اهدي.. أنا بحبك ورح ضل معك، ما بقدر أتركك، ما بقدر".

غفوت، كانت الأدوية أكثر قدرة مني على التحكم في جسدي. آخر ما أذكره أن زياد غنى لي أغنية فيروز التي أحبها "كان غير شكل الزيتون". في الصباح حملني زياد إلى الحمام، غسل شعري وجسدي، ساعدني على

ارتداء ملابسي، وأعادني إلى السرير، فقد حان موعد قدوم الطبيب في زيارته الصباحية.

لم أكن طفلة يوما، ولا مراهقة، ولا عروسا شابة، ربما لا أستطيع تذكر متى كنت صغيرة آخر مرة. حين ألعب مع ابني سامي، حين نذهب إلى السينما تلوح في داخلي مشاهد قديمة لأطفال صغار كنت أراهم، لكنني لم أكن يوما مثلهم، ولم أعرف أن ما لم نأخذه في طفولتنا، لن نأخذه أبدا.

عشت مراحل عديدة في حياة واحدة، ولو أردت الحديث عن كل حياة منها لن يمكنني تذكر التفاصيل الكثيرة، هناك رغوة تشبه زبد البحر تعلو ذاكرتي لتؤطر سياج كل حياة، فلا أتذكر، أو أرى إلا ذاك الزبد.

الحقائق لا تُكشف بسهولة. نحتاج أن نكتوي بالنار؛ أن تُلامس أصابعنا وهج الشمعة لنعرف أنها تحترق وحدها، من دون وجود شمعة أخرى تؤنس احتراقها.

ماذا لو لم يعرف المرض طريقه إلى جسدي؟ ماذا لو بقيت أعيش في كذبة الدفء العائلي المشترك، كنت سأمضي ما تبقى من عمري وأنا مؤمنة أن هذا هو الحب، وأن ما يمنحه لي ماهر من رعاية اجتماعية هو كل ما يمكن أن أحصل عليه.

ثم جاء المرض وكسر أوهامي، بعد أن تقيأتُ مرات رغما عني، وبعد أن شاهدت تلك النظرة في عينيه عرفت أن ماهر لا يحبني. ثمة نوع من الحب ينتهي بنظرة واحدة، لا يحتاج لأكثر منها.

الحب الذي لا يبدأ بشغف، ويتشكل بفعل التراكم، تبدو نظرة واحدة كافية لأن تنهيه، وأنا عرفت أن ما بيننا انتهى عقب تلك النظرة التي رأيت فيها اشمئزازه من مرضي.

أما زياد، فقد اكتشفت حبه أيضا بعد أن مرضت. زياد الذي يشبه طفلا صغيرا في تعلقه بي يقول إنه يتمنى البقاء طوال عمره إلى جانبي، لم يكن حبه يحتاج دليلا. الحب الحقيقي مثل الشمس، لا يمكن حجبه، يكشف نفسه بحرية تامة من دون الحاجة لأبواب مواربة كي يدخل منها.

انتهت العلاقة بيني وبين ماهر بعد مرضي، ما تبقى بيننا مجرد إجراءات شكلية أعرف أنه عاجز عن وضع كلمة النهاية، لأنه أضعف مني في القدرة على المواجهة.

آلام معدتي لا تنتهي.. القيء سلبني عافيتي. تحاليل، فحوصات، لم تكشف عن شيء في البداية، لكن فيما بعد، ومع استمرار الألم دخلت دائرة الاشتباهات. التهاب حاد في جدار المعدة، ورم "ربما يكون حميدا"، هذه الجملة قالها الطبيب، وكنت أعرف أن الورم لا يمكن أن يكون حميدا.

يأتي المرض ويفرض علي سؤاله: "من أنت؟"

حقا من أنا؟

هل أنا ليلى، البنت الفقيرة– شبه اليتيمة– التي عاشت في "دير السرو"، ولديها أحلام كبرى تُنبئ أن الغد سيكون أجمل؟

هل أنا الأم المعذبة في علاقتها مع ابنها منذ اليوم الأول، في محاولتها أن تُقصي علاقتها معه عن كينونة والده، وفي نكرانها المستمر لوجود شبه بينهما.

من أنا حقا؟ زوجة صاحب مطعم " أندلسيا" الأشهر في بيروت!

أنا كل هذا.. ولستُ شيئا من هذا.

ما نكون عليه ليس هو ذاتنا الأعمق، وأنا لم أجد ذاتي الأعمق بعد.

ذاتي ليست في الماضي، ولا في الحاضر، ولا في الآلام أو المسرات التي عرفتها؛ تحت كل هذه الطبقات ثمة تجاويف بعيدة، لا يراها أحد.

وجود زياد أيضا وضعني أمام مرآتي، هل لأن ثمة شبه بيننا في اليتم، في الفقد، في الوحدة، في الحاجة الماسة للحب، أم لأن إحساسي بالأمان وهو يمسك يدي، فاق برود حياتي وجفافها، وجعلني أبحث عن ابتسامة حقيقية خلف زجاج المرايا الوهمي.

فمن أنا؟

وأي خسارة جرحت ذاتي الأعمق أكثر، هل منذ أن تركت دراستي وتنازلت عن حلمي بدراسة هندسة الديكور، أم بعد أن تخلى عني ربيع، أم منذ استباحة جسدي في ذاك الزواج، وإدراكي بعد تلك الليلة المشؤومة أنني تهت عن ربيع للأبد، وأن ربيع لن يعود لي.

أم لحظة أخذ حميد ابني، كي يجبرني على العودة إليه؟

أم بعد زواجي من ماهر بسنوات، واكتشافي عمق أنانيته!

في الحقيقة، نحن لا نشبه عائلتنا بالشكل الخارجي فقط، بل ربما نكرر نفس مواقف الحياة بشكل أو بآخر. في تواصلي مع زياد، بماذا اختلفت عن أمي في علاقتها مع جانو حين واجهتنا بأنها تحبه، وبماذا اختلفت ياسمين عن جدتي سعاد حين أحبت جدي عواد الكردي وهربت معه، هنا الاختيارات لم تخضع للعقل، للمنطق، بل لصوت ملتبس لا نعرف من أين يأتي مصدره.

كنا نقول عن ياسمين أنها تشبه خالتي ملكة ، لكن أنا التي أشبهها الآن.. يوم عرفنا أن خالتي ستتزوج من شاب يصغرها بأعوام كثيرة، قالت لها أمي بتهكم:

"بده يتزوجك علشان تصرفي عليه" ردت عليها خالتي بتهكم:

"إيه أحسن ما اصرف على ناس بيسرقوني.."، وكانت تقصد ما فعله بها أخي حسن.

لكنني لست جريئة مثل ملكة كي أواجه العالم بهذا الحب. أنا أضعف منها بكثير، وأعجز عن الاعترف بفشل زواج ثان، والعلاقة مع شاب أصغر مني بعشرة أعوام. حميد كسر إيماني بذاتي الذي احتجت لسنوات كي أرممه، وماهر أوهن الشغف في داخلي عبر تفكيره الدائم بالحسابات والخسائر وبالمكسب الذي حققه المطعم اليوم، وبأسعار المواد الغذائية، وبالنشرة الحسابية التي يتلوها علي يوميا، وكان علي أن أصغي وأحتمل كل ما يقول، وفي اليوم الذي أجبرني المرض على الخروج من إطار الصورة الذي

وضعني به، لمعت في عينيه طاقة رفضه لي.

أما زياد فلا أملك تفسيرا لعلاقتي به. يغمرني إحساس بالخفة معه، يعيدني إلى ذاتي، قبل أن تصيبها الندوب. معه عرفت كيف يلامسك جسد يسعى إليك أنت، للتوحد معك فقط. كانت هناك رهافة اللمس، ومتعة التوازن في جديلة ألفة متبادلة، من دون تظاهر بالنشوة أو عنف في مطاردتها، وبلا وجل من أفكار مسبقة. يُسقط الجنس الأقنعة، ويكشف حقيقة الوجوه أكثر من كل العبارات المحكية، زياد كان متلاشيا في جسدي متوحدا معه، مشغولا بمعرفة أماكن جراحه ومداواتها. كان يوشوشني بكل ما يود قوله، وكأنه حريص ألا تشاركنا ذرات الهواء لحظاتنا تلك.

في ذاك الوقت كانت أعراض مرضي طفيفة، لكنني كنت أحس أن ثمة ما هو آت، وأن علي التمسك بالحياة، كأنني أوشك على الانسحاب إلى عالم آخر، وينبغي علي التشبث بحقيقة ما تساعدني على المواجهة.

"زياد، بدي شوفك" قلت له عبر الهاتف .

الحب، هو تلاق بين اثنين يحتاجان للالتصاق ببعضهما في ذات اللحظة الزمنية. ما الذي يحتاجه مني زياد؟ هذا السؤال ظل معلقا في داخلي، وكنت أود سماع إجابته.

"أنا ما بدي منك شي.. أنا حبيتك وبس.. مش ذنبي أني حبيتك وأنت متزوجة، أكيد ما كان اختياري إني حبك.. أنا بس بدي أبقى حدك بالشكل اللي أنت بتقبليه".

كانت جملة أنه لا يريد مني شيئا تزيد من إحساسي بالتعاسة. ليتني أعرف الشكل الذي أريد لزياد أن يبقى به في عالمي، لكنني في قرارة ذاتي لا أعرف أين هو الركن المناسب الذي سيستقر فيه زياد في حياتي.

لذا كان ينبغي أن أكون أكثر حسما، أن أدفعه للخروج من دائرتي، لنسياني تماما. قال لي مرة إنني في اللاوعي أقاوم الحب، والتعلق، وأريد أن أثبت بأي شكل أنه سيئ، كي أقنع نفسي بضرورة التخلي عنه. ألقى بوجهي الحقيقة، ثم مضى.

هل المرض فقط، هو الذي يدفعني للتخلي عن زياد، أم أنانيتي ، أم خوفي عليه من التوغل أكثر في علاقتنا، أم لأني لم أحبه حقا؟

لكن المرض لم يمهلني وقتا للتفكير. حين دخلت إلى المستشفى، وبقيت لأيام فيها، جاء زياد ولم يغادر إلا في الأوقات التي يتأكد فيها أن أمي أتت للبقاء بجانبي، حين شاهده ماهر قال له بحدة:

"شو مبين هون زياد..شو عم تعمل؟"

قلت له: "فل زياد..فل من هون .."

لكنه رد على ماهر بصوت واضح:

"مش رح أتركها لحالها".

نظر ماهر إلينا، كان ثمة شرارة تتحرك بيننا جميعا، كشفت كل ما هو كائن.

لم أكن في حال يسمح بالجدل، ليستجوبني ماهر عما يدور، وصول أمي في تلك اللحظة حسم الموقف. غادر ماهر الغرفة، وبقينا أنا وأمي وزياد؛ نجوى ظلت صامتة، وكأنها فهمت ما يدور، لكنها لم تعلق.

لم أرجع إلى بيت ماهر، بل عدت إلى بيتنا في "وادي أبو جميل"، وكان من المفروض أن أستعد للسفر من أجل العلاج، أرسلت إلى حسان "إيميل" أطلب منه ضرورة الحضور، لأني سأترك سامي برفقته لوقت لا أعرف كم سيطول. أمي لن تقوى على رعاية سامي ونايا، لم تعد صحة نجوى تحتمل وجود طفلين كما كانت فيما مضى.

أنظر إلى هاتفي المحمول، أتمنى لو كان بمقدوري الاتصال بربيع، سماع صوته مرة واحدة قبل أن أسافر.. أمسك هاتفي أبحث عن اسمه،هناك أرقام بيننا عددها كثير، لكن السنوات التي فرقتنا أكثر. ما الذي يمكنني قوله له الآن! لا شيء. لا شيء على الإطلاق يمكن قوله.

حسان

عند الصباح الباكر، سمعنا طرقات متتالية على الباب. طرقات زائر يلح بالدخول. فتحتُ الباب وعيناي نصف مغمضتين، وجدت امرأة شابة سمراء ترتدي عباءة سوداء طويلة، تضع على رأسها حجابا أسود، وتمسك بيدها اليسرى طفلا لم يتجاوز الرابعة من عمره، في يدها اليمنى حقيبة متوسطة الحجم، ملامحها ذكرتني بالنساء البدويات في "دير السرو"، لكنها لم تكن بدوية.

سألتني بلهجة لم أتمكن من تميزها في البداية: "هنا بيت الست نجوى عبدالله، أم حسان"؟ صمتت قليلا، ثم قالت: "أنا زوجة ابنها حسن".

لم أقو سريعا على استيعاب ما قالته، لكنني تمتمتُ بكلمات ارتجالية أدعوها للدخول، ربما قلت لها وأنا أنظر للطفل، الذي معها: "ههه.. مين.. حسن.. زوجة حسن".

أسرعتُ إلى الداخل كي أوقظ أمي وليلى، وأحمل إليهما خبر الوافدة الجديدة.

في الصالون، جلست زوجة أخي المجهولة صامتة في البداية، ثم فتحت حقيبتها، وأخذت منها دفترا وضعته بجانبها، وهي تقول:

هذا دفتر حسن، طلب مني أن آتي به إليكم".

أخرجت من حقيبة يدها ورقة تبين أنها عقد زواج فردته أمامنا، يُثبت أن أخي تزوج من السيدة ثريا العلي في العراق قبل أكثر من خمسة أعوام.

غصت أمي بالبكاء، تساقطت دموعها، صرخت، وهي تلطم وجهها وتولول: "وينه حسن.. وينه.. حسن مات.. مات حسن".

ردت عليها ثريا: "بعيد الشر.. لكن ما حد يدري وينه يا حاجة، أخباره مقطوعة من شهور، هو مع المجاهدين بسوريا".

ليلى التي ظلت صامته ومتماسكة، كعادتها في المواقف الصعبة، اقتربت بلطف شبه مبتسمة لتسحب الطفل من يده، وتأخذه إلى الداخل، حاولت إغراءه بالحلوى والألعاب إلا أنه رفض وظل مُتمسكا بعباءة أمه. أعرف أن ليلى لم ترغب أن يشارك الطفل هذه الجلسة مهما صغر سنه، لذا نظرت إلى أمه وطلبت منها بوضوح أن ترافقها إلى غرفة نايا، حيث

يوجد كم من الألعاب المغرية لأي لطفل، هكذا دلفت زوجة أخي لأول مرة إلى عالمنا،؛ ثم عادت برفقة ليلى لتقص علينا بقية الحكاية.

كانت ثريا تنقل نظرها بيننا نحن الثلاثة وهي تتكلم، وكأنها تتكشف ردة فعلنا على حضورها. أمي بان عليها الهرم فجأة، شعرها الطويل الأحمر، الذي تصبغه بالحناء منذ غزاه الشيب بدا أكثر بياضا، وجهها محفور بتجاعيد ثقيلة، أما جسدها فقد تضاءل كأنها شبح. ليلى تجلس مطرقة إلى الأرض وفي عينيها دموع حبيسة.

"تزوجت حسن منذ خمسة أعوام، وأنجبت منه أنس، التقينا في العراق، تزوجنا، وبقينا في بلدي خمسة أعوام قبل أن يذهب إلى سوريا، وهناك انقطعت أخباره. جاء أحد الأخوة قبل عدة أشهر، وأعطاني هذا الدفتر، ورسالة من حسن، مكتوبة بخط يده، طلب مني أن آتي إليكم، وأن أسلمكم هذا الدفتر، تدبرت أمري بصعوبة كي أصل إلى هنا، لأنني لم أكن أملك وثيقة سفر لأنس، لذا استخرجت له وثيقة سفر مزورة".

فتحت الصفحة الأولى من الدفتر ذي الغلاف الجلدي الأسود، وجدت آية قرآنية تقول:

قال الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل" صدق الله العظيم.

بدأت أقرأ بشكل عشوائي ما كتبه أخي. حكايات غير مؤرخة، لكنها

تكشف ما لم نعرفه عنه. تذكرت يوم ترك حسن البيت للمرة الأولى، وعرفت أنه موجود في مخيم "نهر البارد"، ذهبت أبحث عنه، فوجدته يقطن في غرفة بائسة مع شخص آخر قدمه لي بأنه أحد الأخوة. كان لأخي هيئة المجاهدين الذين أرى صورهم وأسمع حكاياتهم؛ لحية طويلة، ونظرات حاسمة تؤكد بأنه لن يحيد عن طريقه. بارودته يسندها إلى جانب الباب، يرتدي ثيابا بيضاء، وجلبابا قصيرا، وبنطالا أسفل منه. أخبرني بأنه سيسافر إلى العراق ليجاهد ضد الأمريكان كي تعلو راية الإسلام. قال لي يومها إن الله رحمه من مصير عائلتنا الملعونة بغضب الله. لم يكن ينظر في عيني وهو يتكلم، كانت عيناه مصوبتان نحو الأرض، وهو يقول:

انظر.. انظر كيف تعيشون جميعا في ضلال. أنت ترسم وجوها، وأختك الصغرى تبيع نفسها باسم الفن.. وأختك الثانية تعمل في مطعم.. جميعكم في ضلال من هدى الله. لكم طريقكم ولي طريقي، اذهب يا أخي، لن أعود معك، لم يعد لي أحد إلا أمي، وسآتي لأراها بين حين وآخر، رضا الله من رضا الوالدين."..

انتهى الحوار بيننا يومها عند هذا الحد. عرفنا أن حسن صار مطلوبا للعدالة لاتهامه بالمشاركة في تفجيرات وقعت في بيروت.

بعدها، جاء حسن إلى البيت مرتين أو ثلاثة، متنكرا بأزياء غريبة مرة يضع باروكة شعر ويرتدي بنطالا من الجينز على الطريقة العصرية، ويرتدي سلسلة ذهبية حول عنقه، ومرة أخرى يتنكر بزي رجل عجوز، لم أكن أعرف أن لأخي تلك الموهبة في تغيير شخصيته، لكنها الضرورة كما يبدو.

يصل بعد منتصف الليل، ويغادر بعد منتصف الليلة التالية، ويرسل بين حين وآخر إلى أمه ما يفيد بأنه على قيد الحياة، ثم تباعدت أخباره منذ غادر لبنان، كان يرسل إلينا بين شهور متباعدة خطابات مكتوبة بخط يده، لكنه لم يذكر شيئا عن زواجه– كما أكدت أمي– ولا عن ابنه، لماذا لم يفعل يا ترى؟

في الصفحة الثانية كتب أخي:

مضيت في طريقي، الذي هداني الله له، ومن يهده الله لسبيل الحق لن يعرف الضلال بعده. حين أذكر حياتي في لبنان، أعرف كم كان فيها من الضلال، سامحت أمي لما مرت به من أهوال في حياتها، لكن أبي سبب ضلالنا جميعا، رغم البطولات، التي يحكيها الشيخ مُحَمَّد الأمير عن أبي، وكيف قاتل العدو في الجنوب، إلا أن رحمة الله لم تدركه. أطلب له المغفرة في كل صلاة وأدعو له، فما انقطع عمل ابن آدم على الأرض، من حسنة جارية، أو من ولد صالح يدعو له. أنا أدعو لأخوتي جميعا بالهداية، وأتمنى لو يذوقوا السكينة، التي عرفتها في رحاب الله، وبين جنوده الأكارم. عشت طوال عمري تائها، لا أعرف لي هوية أو انتماء، حتى شملني الله بعطفه ووضع في طريقي الشيخ مُحَمَّد الأمير، الذي أنار قلبي، ورعاني كابن له" .

في الصفحات الأولى، ظل حسن يحكي عن رحلته من الضلال إلى النور، عن تقلباته في الظلام، وتنقله بعد فراره من البيت بين صبرا وشاتيلا، وبرج البراجنة، وحي السلم، يحكي عن الفقر والبؤس الشديد، الذي رآه في "حي السلم"، عن ليالي الجنس الرخيص، مع فتيات بائسات، وعن

تجارة الجنس والمخدرات، والسلاح، ثم في إحدى الصفحات يكشف عن لقائه من جديد في طرابلس مع الشيخ مُحَّد الأمير، وكيف أثنى عليه الشيخ، وقربه إليه، وشجعه على المضي في طريقه.

يتقطع السرد في حكايات أخي، فلا يبدو متصلا، أو متتاليا حسب الأيام، من الواضح أنه كان يتوقف عن تدوين حكايته لأسابيع أو لأشهر، ثم يعود فجأة للكتابة، ويتضح هذا في استخدامه ألوان أقلام مختلفة، تتنوع بين الأسود والأزرق والأحمر. يبدو أنه سجل اللحظات المؤثرة في حياته، أقلب الصفحات أقرأ ما كتبه عن زوجته:

" بفضل الله ورحمته تعرفت بزوجتي ثريا عن طريق الأخ خالد أبو حمزة، بعد مرور ثلاثة أعوام على وجودي في العراق، كانت قريبة لزوجته، من المسلمات المجاهدات في سبيل الله، أرملة شابة استشهد زوجها في أفغانستان، وتركها وحيدة من دون سند، تساعد في غسل ثياب المجاهدين، وإعداد طعامهم.

وقع هوى ثريا في نفسي منذ رأيتها أول مرة، بزغ عشقها داخلي كفجر لا يقاوم. ثريا، التي ذكرني حزنها بكل ما سُلب مني؛ فمن أين لها عذوبة الملامح العربية الأخاذة؛ وكيف استطاعت أن تحتفظ بتلك الهالة الوضاءة في وجهها الخمري ولمعة عينيها السوداوين. وافقت على الزواج بها فور أن اقترح عليّ الأخ خالد أن أقترن بها لكسب الثواب، ولم يكن يعرف أنه يكسب بي أنا الثواب.

أرسل إلينا الشيخ مُحَّد الأمير– من لبنان– حفظه الله يستشيرنا في

المجيء ليشارك بنفسه مع الشباب ويُلح في هذا وبقوة وكان رأي جميع الأخوة الكبار، شركاء الجهاد في سبيل الحق ، ألا يفعل وسألناه بالله، وأقسمنا عليه ألا يفعل ضناً به وحفاظاً عليه، وحتى لا يستشرس الأعداء أكثر وأكثر إذا تسرب خبر وجوده في ساحة المعركة. الشيخ مُحَّد الأمير كان هذا اسمه بين جماعته في لبنان، وعند الحكومة أيام معارك "نهر البارد" كان معروفا باسم "أبو صخر"، والمعروف هنا بيننا باسم "أبو زينب"، أما جنود أعداء الإسلام فقد أطلقوا عليه اختصارا لقب "زيرو". كانت كل هذه الأسماء لشيخى البطل، وفي داخلي يراودني إحساس أن لكل اسم روحا مختلفة تسكن جسد الشيخ الأمير."

صفحات بيضاء كثيرة، تخللتها عبارات مبهمة، عن سفر، وعودة، عن قتال، وندم، عن بكاء، وعدم قدرة على التراجع، ثم ورقة أخرى مطوية كتب فيها حسن:

"اعترضت على تلك العملية، رفضتها، أنا لست قاتلا، أنا أقاوم أعداء الإسلام فقط، لكن شيخي أصر أن أقوم أنا تحديدا بتلك المهمة، بكيت كثيرا ليلتها، لم أحك لثريا ما كلفني به الشيخ، ولا ما أفكر به، لم أكن أعرف لمن يكون ولاء امرأتي أكثر، لي أم للجهاد! كنت أفكر بابني أنس، ربما يكون مصيره مثل مصير الأطفال الذين ماتوا ذاك الصباح، قال شيخي: إن لكل عملية ضحايا، وأن النساء والأطفال الذين ماتوا في الحافلة، يُحسبون شهداء عند الله.. لم أعترض يوما على أي أمر يصدره الشيخ، حتى صفقات التبادل بين السلاح والمخدرات، لم أعترض عليها،

لكنني اعترضت حين طلب مني الصعود في حافلة مدنية وترك عبوة ناسفة فيها.

لم أعرف أن اعتراضي سيجعله أكثر تشددا وإصرارا على قيامي بالتفجير، قال لي يومها: "وأطيعوا أولي الأمر منكم"، ثم هز رأسه، وهو يحدق بي ويضربني على صدري، وهو يقول: "النمر اللبناني قلبه أخضر، هنا ينبغي أن يكون حجر، لو طلبت منك قتل أخيك إن كان من أعداء الاسلام، ما عليك عصياني. علينا أن نُرهبهم، أن نقض مضاجعهم، لا نجعلهم يرقدون بأمان، هل فهمت يا حسن.

طاطأت رأسي بالموافقة. فأنا أطيع أولي الأمر منا."

أقلب صفحات طويلة تصف المعارك، ثم صفحات بيضاء أخرى، ثم كلمات مكتوبة بقلم أزرق:

ياه.. يا أمي.. أين أنت؟ أشتاق أن أضع رأسي على كتفك وأبكي.

بسبب شكي الأول في انتمائي إلى أمي، إلى أبي، إلى أسرتي، اتجهت أبحث عن الله وتحولت عند الأخوة إلى بطل أمام الجميع، ومخذول أمام نفسي، إلى أن أُبعدتُ وأُجبرتُ على طرق باب النفي، وتحضير زاد القهر يوماً بعد يوم.

حتى سن السابعة بقيت أمشي ممسكاً ثوب أمي ومنذ أن أفلته، صرت تائها أبحث عن يقين أتشبث به. أطلب الحقيقة، تأتي إليّ، وأكون حينها في بلاد لا تُجدي الحقائق فيها.

عاودني إحساس اليتم، والوحدة، كنتُ أصغر أبناء نجوى الأربعة، انشغالها عني في همومهم ومشاكلهم، في أوجاعها وأحزانها، خلق في نفسي شكاً بأنني لست ابنها، ربما أكون لقيطاً تعطفتْ عليه، أو يتيما ملقي علي باب الجامع فتعهدتْ بتربيتي ثم ندمت، منذ سن التاسعة حاولت البحثَ عن حقيقتي. كانت تشرب القهوة صباحاً كل يوم مع نجمة أو مع خالتي ملكة، أو إحدى الجارات، يجلسن معاً لتبادل الأسرار وحكايا الجيران، كنتُ أتسلل إلى جوار النافذة يومياً، علني أستمع لقصتي من أمي أو خالتي، علَ إحداهما تعترف عن الطفل اللقيط، الذي هو أنا، خمس سنوات مرت علي وأنا أحاول التنصت على الحقيقة ولم أجدها أبداً، ولم أعرف من أين جاء شكي، إنني لست ابن "نجوى" تلك السيدة الجبارة التي هجرها زوجها دون أن تدمع عيناها أمام الغرباء، وحدي كنت أسمع نهنهات حزنها في الليل. تلك كانت نجوى، التي تعلمت من صبرها الشجاعة علناً والقلق سراً، فكيف لها أن تكون بكل هذا الجلد؟

أصبتُ بكل الأمراض المزمنة وغير المزمنة، والعوارض النفسية من الاكتئاب إلى الهذيان مروراً بالانهيارات العصبية، واختبارات قهر الرجال. أنا عاجز عن الفعل، أدعو الله في سري أن يلهمني الصواب، أنتظر رحمته، لكنها لا تأتيني. لم أعرف أن بي هذا القدر من الضعف، وأن عيون الموتى ستظل تُلاحقني، عيونهم أخرجتني من دائرتي المطمئنة التي تمنيت البقاء بها، لكنني خرجتُ منها إلى الأبد."

كلمات حسن لا تكشف عن مكان وجوده، لا تحمل أي توصيات

أو مطالب محددة يوجهها لنا. كل شيء في حياته متروك للقدر، كما كان دائما، ومهما حاول الفرار من مصير عائلتنا، ها هو يرجع إليه.

ماذا فعلت يا حسن؟ من قتلت؟ وتحت أي مسمى غدوت قاتلا يا ابن أمي وأبي! أتراك قُتلت أم مازلت مستمرا بالقتل!

دخلت إلى المطبخ لأعد القهوة، كانت زوجة أخي تقف أمام الثلاجة، تعد لابنها ساندوتيش لبنة، عرضت علي أن تعد لي القهوة حين شاهدتني أمسك الركوة وأضعها على النار، وافقت وأنا أشكرها، أردت أن أشعرها بأنها ليست غريبة، لاحظت من حركتها في المطبخ أنها معتادة على الأعمال القاسية، كانت يداها جافتين، ورغم ملاحة وجهها، كان فيها خشونة واضحة.

وأنا لماذا عدت الآن؟! رجعت من أجل ليلى، كي آخذ ابنها معي، وها أنا أجد نفسي أمام طفل جديد من أطفال العائلة، ابن أخي الذي لا نعرف مصير والده.

هل عليّ ترك كل شيء والعودة من حيث أتيت، أم أن القدر وضعني في المواجهة مرة أخرى، لأنقذ هذا الطفل من أن تربيه أمه على ما آمنت به هي وأبوه، كي يصبح مجاهدا من جديد، وتظل السلسلة مستمرة؟

لكن حسن أراد لابنه أن يعود إلى بيتنا، وفي هذا رسالة مضمرة علي أن آخذ بها، حتى وإن لم يكتبها مباشرة، حسن طلب من زوجته أن تعود مع ابنه إلينا، وهذا يعني أنه لا يريد لأنس أن ينتهي مصيره مثله، شعرت

ببعض الراحة حين ألح علي هذا الخاطر.

نظرتُ إلى أنس، يا الله كم يشبه حسن، وكم يشبه أبي أيضا. هل نرث جينات القتال بين عروقنا؟ هل حسن هو الذي حمل كل جينات أبي ورغبته في القتال والفرار لحاقا بقضيته التي يراها عادلة؟ وأنا هل كانت قضيتي رسم وجوه الكاريكاتير في صفحات الجرائد. هل هذه هي قضيتك فقط يا حسان!

واجه الحقيقة، أنت مازلت تعيش قيد الدرس.

فكل شيء في حياتك ما يزال قيد الدرس..

قيد الدرس ليست مجرد هوية يا حسان؛ إنها حالة.

كما بيروت ليست مجرد مكان، بل اختيار.

ليست مدينة فقط،من بحر، وبيوت، وشوارع، وبشر.. إنها اختيارك، مكانك الأول؛ لاستمرار الحياة.